أن تملك وألا تملك

إرنست هيمنجواي

- Author : Ernest Hemingway
- Title: To Have and Have Not
- Translated by: Nour Eldeen Mostafa
- Afaq's first edition: 2018
- Cover Design by: Amr El Kafrawy
- Publishing Consultant: Sawsan Bashier

- المؤلف: إرنست هيمنجواي
- العنوان: أن تملك وألا تملك
- ترجمة: نور الدين مصطفى
- طبعة آفاق الأولى 2018
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير

رقم الإيداع:
٢٠١٧ / ٩٣١٤
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977 - 765 - 099 - 1

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

إرنست هيمنجواي

أن تملك وألا تملك

رواية

ترجمة

نور الدين مصطفى

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

هيمنجواي، إرنست.

إرنست هيمنجواي : أن تملك وألا تملك – ترجمة: نور الدين مصطفى

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2018

256 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 9314 / 2017

الترقيم الدولي 978 – 977 – 765 – 099 – 1

1 – الأدباء (روايات)

2 – هيمنجواي، إرنست

الفصل الأول

اتفاق لم يتم

إنك تعلم كيف يكون الحال في هافانا في الصباح المبكر، في الوقت الذي يكون فيه المتشردون لا يزالون نائمين مستندين إلى جدران المباني، وفي الفترة التي تسبق وصول عربات الثلج وهي تحمله إلى البارات ..حسنًا، وجئنا عبر الميدان إلى مقهى «لؤلؤة سان فرانسيسكو» لنتناول القهوة، بينما لم يكن هناك سوى شحاذ واحد مستيقظ في الميدان، وكان يأخذ جرعة من ماء النافورة. ولكن حينما دخلنا المقهى وجلسنا، كان ثلاثتهم في انتظارنا.

جلسنا وجاء إلينا أحدهم، وقال: «حسنًا».

قلت له: «لن أستطيع القيام بهذا العمل، كنت أود القيام به لأؤدي لكم خدمة. ولكني أخبرتك الليلة الماضية أنني لن أستطيع».

– لك أن تحدد الثمن الذي يروقك.

– إن الأمر ليس كذلك.. إنني لا أستطيع القيام به.. هذا كل ما في الأمر.

كان الاثنان الآخران قد أتيا ووقفا هناك، يبدو عليهما الحزن.. كانا شابين حسني المظهر، وكنت أود أن أقوم بالعمل من أجلهما.

وقال أحدهما، وكان يتكلم الإنجليزية جيدًا: «ألف للقطعة».

قلت له: « لا تجعلني أحس بأنني شرير، إنني أقول لك في صدق إنني لا أستطيع القيام به».

– فيما بعد، حين تتغير الأحوال.. سيعني هذا الكثير بالنسبة لك!

– أعلم ذلك.. وإنني أضع نفسي كلية تحت أمركم، ولكنني أؤكد أنني لا أستطيع القيام به.

– ولم لا؟!

– إنني أكسب قُوْتي بهذا الزورق.. وإذا فقدته فقدت قُوْتي!

– تشتري زورقًا آخر بالنقود!

– لن يتم هذا وأنا في السجن!

ولا بد أنهم حسبوا أنني محتاج فعلًا إلى المساومة على هذه العملية؛ لأن الأول استأنف كلامه قائلًا:

– سيكون لك ثلاثة آلاف دولار، وربما تفيد من هذا الكثير جدًّا فيما بعد.. وهذا الأمر كله لن يستمر كما تعلم.

قلت: «أصغ إليَّ، إنني لا أهتم بمن يكون رئيس الجمهورية هنا. ولكنني لن أحمل إلى الولايات أي شيء يستطيع الكلام».

وقال أحدهم غاضبًا، ولم يكن قد تكلم من قبل: «أتقصد أننا سنتكلم؟».

- لقد قلت أي شيء يستطيع الكلام.

- أتعتقد أننا من ذوي الألسنة الطويلة؟!

- كلَّا....

- هل تعرف من يكون ذا اللسان الطويل؟

- أجل.. إنه إنسان ثرثار.

-هل تعلم ماذا نفعل بهم؟

قلت: «لا تكن صلبًا معي.. لقد عرضت أنت الأمر عليّ، ولم أعرض أنا عليكم أي شيء».

- اصمت يا بانكو.

قالها الرجل الذي تكلم في البداية للرجل الغاضب.

وقال بانكو: «لقد قال إننا سنتكلم».

قلت: «اسمع، لقد قلت لكم إنني لن أحمل أي شيء يستطيع الكلام.. فالمشروبات المعبأة لا تستطيع الكلام.. والزجاجات الكبيرة لا تستطيع الكلام.. وهناك أشياء أخرى تستطيع الكلام..

الرجال يستطيعون الكلام!».

فقال بانكو: «هل يستطيع الصينيون الكلام؟».

قلت له: «إنهم يستطيعون الكلام، ولكنني لا أستطيع فهمهم»!

- إذن فلن تقوم بالعملية؟!

- إن الأمر مثلما قلت لك في الليلة الماضية تمامًا.. لا أستطيع!

قال بانكو: «ولكنك لن تتكلم؟».

وكان الشيء الوحيد الذي لم يفهم حقيقته قد جعله متجهمًا، وأعتقد أنه كان متجهمًا بسبب خيبة الأمل أيضًا.. ولم أحاول حتى الرد عليه. وسأل وهو لا يزال متجهمًا:

- إنك لست طويل اللسان، أليس كذلك؟

قلت: «لا أظن ذلك، ولا تكن مزعجًا على هذا النحو في مثل هذا الصباح المبكر. إنني واثق أنك ذبحت رقاب كثير من الناس.. إنني لم أشرب بعد حتى قدحًا من القهوة».

- إذن فأنت واثق من أنني قد قطعت رقاب الكثيرين؟

قلت: «كلَّا، وأنا لا أهتم بذلك مطلقًا.. ألا تستطيع أن تمارس عملًا دون أن ينتابك الغضب؟».

قال: «إنني غاضب الآن، وكم أتمنى لو أقتلك..».

قلت له: «أوه، يا للجحيم.. لا تتكلم كثيرًا».

وحينئذ قال الرجل الأول: «تعال يا بانكو». ثم أضاف يقول لي: إنني آسف جدًّا، كنت أتمنى لو نقلتنا».

- إني آسف أيضًا، ولكني لا أستطيع.

وبدأ ثلاثتهم يتجهون إلى الباب، وراقبتهم وهم يذهبون.. كانوا شبانًا طيبي المظهر، يرتدون ثيابًا أنيقة، ولا يرتدي أي منهم قبعة، وكان يبدو عليهم كما لو كان معهم الكثير من النقود.. وعلى أية حال، فقد كانوا يتكلمون عن نقود كثيرة، وكانوا يتحدثون بتلك اللهجة الإنجليزية التي يتكلمها الكوبيون الأثرياء.

كان يبدو على اثنين منهم أنهما أخوان.. أما الآخر، بانكو، فقد كان أطول منهما قليلًا، ولكن يبدو عليه نفس مظهرهما: رشيق، ملابس أنيقة، وشعر لامع، حتى أنني لم أتصور أنه يمكن أن يكون وضيعًا بمثل الطريقة التي تحدث بها إليَّ، ولكن يبدو أنه كان عصبيًّا جدًّا.

وحينما استداروا خارجين من الباب الأيمن، رأيت سيارة مقفلة تأتي عبر الميدان متجهة إليهم. وكان أول شيء حدث تحطيم لوح زجاج ثم اندفعت الرصاصة مخترقة صف الزجاجات التي رُصت في واجهة المقهى لتستقر في الحائط الأيمن، وتتابع صوت إطلاق الرصاص، وأخذت الزجاجات تتحطم على طول الحائط.

وقفزتُ خلف البار إلى الجانب الأيسر، واستطعتُ أن أرى ما يدور حين تطلعت من فوق حافته. كانت العربة قد أوقفت، وكان

هناك شخصان مقعيين إلى جوارها وقد أمسك أحدهما ببندقية من طراز «تومي»، والآخر ببندقية أتوماتيكية رشاشة سريعة الطلقات. وكان الذي يمسك البندقية «التومي» زنجيًّا، أما الآخر فكان يرتدي معطف حلاق أبيض.

وكان أحد الفتيان قد تمدد على الممر الجانبي، ووجهه إلى الأرض تمامًا خارج النافذة الكبيرة التي تحطمت، أما الآخران فكانا خلف إحدى العربات التي تنقل الثلج والبيرة، وهي العربة التي أوقفت أمام حانة كونراد المجاورة. وكان أحد حصاني عربة الثلج ملقى على الأرض في سرجه، وهو يرفس، بينما كان الآخر يدفع رأسه إلى أعلى.

وأطلق واحد من الفتيان الرصاص من الزاوية الخلفية للعربة، فاخترقت الرصاصة الممر الجانبي. ووضع الزنجي الذي يحمل البندقية التومي وجهه تقريبًا في الشارع، وأطلق على مؤخرة العربة سيلًا من الرصاص من تحتها، وكان من المحتم أن يسقط واحد منهما، ويرتمي ناحية الممر الجانبي ورأسه على الرصيف، وارتمى هناك وهو يضع يديه فوق رأسه، وأخذ الحلاق يطلق الرصاص عليه من بندقيته السريعة الطلقات، بينما كان الزنجي يضع خزانة جديدة لبندقيته، ولكن الرصاص استمر مدة طويلة، وكان من اليسير رؤية العلامات التي تتركها الرصاصات فوق الممر الجانبي كله، كما لو كانت رذاذًا من فضة.

وجر الفتى الآخر، المصاب من قدميه على ظهره وراء العربة،

ورأيت الزنجي يخفض وجهه على الرصيف ليطلق عليهما سيلًا جديدًا من الرصاص. وحينئذ رأيت بانكو العجوز يأتي من ركن العربة، ويخطو محتميًا بالحصان الذي كان لا يزال واقفًا، ثم خطا مبتعدًا عن الحصان، ووجهه أبيض كخرقة قذرة، ثم قضى على الحلاق بمسدسه اللوجر الضخم، وهو يمسكه بكلتا يديه ليحتفظ به ثابتًا، ثم أطلق رصاصتين فوق رأس الزنجي، وواحدة إلى أسفل. ولا شك أنه أصاب أحد إطارات السيارة؛ لأنني رأيت الغبار يندفع فوق أرض الشارع حين خرج الهواء من الإطار، ومن بعد عشر أقدام أطلق الزنجي عليه رصاصة من بندقيته التومي فأصابته في معدته، ولا شك أن هذه كانت الطلقة الأخيرة في البندقية لأني رأيته يلقيها أرضًا، وجلس بانكو العجوز بصعوبة وأخذ يزحف إلى الأمام، كان يحاول النهوض وهو لا يزال ممسكًا بمسدسه اللوجر، ولكنه لم يكن يستطيع رفع رأسه إلى أعلى، في حين تناول الزنجي البندقية السريعة الطلقات التي كانت مسندة إلى عجلة السيارة بجوار الحلاق وأطار بها جانبًا من رأسه. كان زنجيًّا رائعًا.

وتناولت جرعة سريعة من أول زجاجة مفتوحة، ولم يكن في استطاعتي حينذاك أن أتعرف على نوع الشراب الذي كانت تحتويه. وكان ما حدث قد جعلني أشعر بأنني في حالة غاية في السوء. وانزلقتُ خلف البار، ثم إلى المطبخ الذي يقع في الخلف، واتخذت طريقي إلى الخارج، ودرت على الفور حول الميدان، ولم أنظر مطلقًا

خلفي إلى الحشد الذي كان يتجمع بسرعة أمام المقهى، وذهبت خلال البوابة إلى رصيف الميناء وصعدت إلى الزورق.

وكان الفتى الذي استأجره ينتظرني على ظهره، وأخبرته بما حدث.

وسألني ذلك الفتى وكان يدعى جونسون قائلًا:

- أين إدي؟

- لم أره أبدًا بعد أن بدأ إطلاق الرصاص.

- أتعتقد أنه أصيب؟

- كلَّا.. إنني أقول لك إن الطلقات الوحيدة التي انطلقت داخل المقهى أصابت الواجهة. وقد حدث هذا بينما كانت السيارة تتبعهم وذلك حينما أصابوا الفتى الأول أمام النافذة مباشرة.

قال: «يبدو أنك متأكد من الأمر تمامًا».

قلت له: «لقد كنت أراقبهم».

وحينئذ، وبينما أنا أتطلع إلى أعلى، رأيت «إدي» قادمًا على رصيف الميناء ويبدو عليه أنه زاد طولًا عن ذي قبل، وكان يسير وقد تصلبت كل مفاصله، فقلت:

- ها هو ذا..

وكان يبدو على «إدي» أنه في حال بالغة السوء، حقًّا إنه لم يكن يبدو على ما يرام في الصباح، ولكنه الآن في منتهى السوء.

وسألته:

- أين كنت؟

- ملقى على الأرض!

وسأله جونسون:

- هل رأيت الحادث؟

فقال له إدي: «لا تتحدث عنه يا مستر جونسون، إن مجرد التفكير فيه يصيبني بالاشمئزاز».

فقال له جونسون: «يحسن بك أن تتناول شرابًا».

ثم التفت إليَّ وقال: «حسنًا، هل سنبحر؟».

- إن الأمر متروك لك.

- كيف سيكون حال الطقس اليوم؟

- كالأمس تمامًا، وربما أفضل.

- فلنبحر إذن.

- حسنًا، سنبحر بمجرد وصول طعم الأسماك.

كانت قد مرت علينا ثلاثة أسابيع ونحن نخرج للصيد في البحر، ولم أكن قد رأيت نقوده حتى تلك اللحظة فيما عدا مائة دولار أعطانيها لأدفع أجر تنظيف الزورق وإعداده، وتموينه بالوقود. وكنا قد اتفقنا على أن أجهز كل عدة الصيد، وكان قد استأجرها بخمسة

وثلاثين دولارًا في اليوم. وكان يقضي ليلته في أحد الفنادق ثم يأتي إلى الزورق صباح كل يوم. وكان «إدي» هو الوسيط الذي أحضر إليَّ المستأجر.. لذلك كان عليَّ أن أستخدمه، وكنت أعطيه أربعة دولارات يوميًّا. قلت لجونسون:

- ينبغي عليَّ أن أمونها بالوقود.

- حسنًا..

- إنني أحتاج إلى بعض النقود من أجل ذلك.

- كم تحتاج؟

- إن الجالون الواحد يكلف ثمانية وعشرين سنتًا.. وينبغي عليَّ أن أضع فيها أربعين جالونًا، وهذا يكلف أحد عشر دولارًا وعشرين سنتًا.

فأخرج خمسة عشر دولارًا أخذتها منه، وسألته:

- أتود أن تجعل الباقي من أجل البيرة والثلج؟

- هذا جميل، ولكن عليك أن تخصمها مما أنا مدين لك به..

كنت أفكر في أن ثلاثة أسابيع مدة طويلة بحيث لا ينبغي أن أدعه يرحل الآن بالزورق، ولكنه لو كان قادرًا على الدفع فلن يكون هناك خوف. وعلى أية حال فقد كان ينبغي عليه أن يدفع كل أسبوع. ولكني كنت أحيانا أؤجر الزورق شهرًا ثم آخذ نقودي، وكان ذلك خطأ ولكني كنت أشعر بالسعادة حين أرى الزورق يؤجر، وهو لم

يضايقني إلا في الأيام الأخيرة فقط، ولكني لم أقل شيئًا خوفًا من إغضابه. وعلى أية حال، فإذا كان قادرًا على الدفع فكلما طالت مدة استئجاره له كان ذلك أفضل. وسألني وهو يفتح الثلاجة:

- أتريد زجاجة جعة؟

- كلَّا. شكرًا..

وحينئذ، وصل الزنجي الذي كان يحضر لنا الطعم إلى الرصيف، فطلبت من «إدي» أن يعد الزورق للإبحار.

وصعد الزنجي إلى ظهر الزورق، فأقلعنا وبدأنا نخرج من الميناء، وأخذ الزنجي يضع الطعم في السنارات بطريقة تجعله لا ينزلق عنها، وكان زنجيًّا أصيلًا، رشيقًا متجهمًا، يرتدي قبعة قديمة من القش. وكان ما يفضله وهو على ظهر الزورق، النوم وقراءة الصحف. ولكنه كان بارعًا في وضع الطعم، وكان يفعل ذلك في سرعة كبيرة. وسألني جونسون:

- ألا تستطيع يا كابتن أن تضع الطعم بهذه الطريقة؟

- أجل، يا سيدي.

- إذن لماذا تحمل معك زنجيًّا ليقوم بذلك؟

- سترى لماذا فعلت ذلك، حين تغمز السمكة الضخمة.

- ولكن ما الفكرة؟

- إن الزنجي يستطيع أن يضع الطعم أسرع مني.

- ألا يستطيع «إدي» القيام بهذا؟

- كلَّا يا سيدي.

- يبدو أن المصاريف التي أدفعها لا لزوم لها.

وكان قد اعتاد أن يعطي الزنجي دولارًا يوميًّا، وكان الزنجي يذهب إلى المرقص كل ليلة حتى وقت متأخر، وها هو ذا يكاد ينام على نفسه فعلًا. وقلت:

- إنها مصاريف ضرورية.

كنا في تلك اللحظة قد عبرنا مناطق الصيد الضحلة، حيث ترسو زوارق الصيد الصغيرة، ووجهت الزورق نحو الخليج، حيث كان يبدو خط مظلم، وأخرج «إدي» سنارتين كبيرتين بينما وضع الزنجي الطعم في ثلاث سنارات صغيرة..

وكان التيار قويًّا، وحين وصلنا حافة الخليج كان من الممكن رؤية التيار يندفع في شدة مكونًا دوامات، وكانت هناك ريح شرقية خفيفة قد بدأت تهب ، وشاهدنا عددًا كبيرًا من السمك الطيار، تلك الأسماك الضخمة ذات الأجنحة السوداء التي تشبه أثناء طيرانها صورة لندنبرج وهو يعبر المحيط الأطلسي، إن ذلك السمك الطيار الضخم خير علامة على وجود السمك.

وعلى مدى البصر، كان في استطاعتنا أن نرى الأعشاب البحرية الصفراء، والطيور وهي تنقض على مجموعة صغيرة من سمك التونة

الذي كان يقفز إلى أعلى، والواحدة منه تزن حوالي رطلين، وقلت لجونسون:

- ابدأ في أي وقت تريد.

وتمنطق بحزامه، وأعد قصبة الصيد الضخمة، وترك طعمه في الماء، ونظرت إلى الخلف، كانت السمكة المستخدمة كطعم تتخبط على الماء والغمازان يغوصان ويقفزان، وكنا نسير بالسرعة المناسبة ووجهتنا إلى داخل التيار الماشي. وقلت له:

- احتفظ بنهاية القصبة في الفراغ المعد لها أسفل المقعد، وبذلك لن تكون ثقيلة عليك، واترك الحبل مرخيًّا حتى يمكنك جذبه حين تغمز؛ لأنه إذا أطبقت السمكة على الطعم والحبل مشدود فستقذف بك إلى البحر.

وكان عليَّ أن أقول له نفس الكلام كل يوم دون أن أملَّ ذلك، فواحد من كل خمسين هو الذي تجده يفهم في الصيد، وحين يتعلمون، يتملكهم الغرور، فلا يستعمل واحد منهم الحبل المتين الذي يصلح لسمكة ضخمة. وسألني:

- هل ترى اليوم مناسبًا للصيد؟

- ليس هناك أفضل منه.

كان اليوم فعلًا رائعًا، وأعطيت الزنجي عجلة القيادة، وتركته ثم عدت إلى حيث كان جونسون جالسًا يرقب طعمه. وسألته:

- أتريد أن أضع سنارة أخرى؟

- لا أعتقد، أريد أن أصطاد، وأدخل في معركة مع السمكة، وأخرجها من الماء بنفسي.

- حسنًا، أترغب أن يمسك «إدي» بقصبة أخرى ثم يعطيها لك إذا غمزت حتى تستطيع أنت صيدها؟

- كلَّا، إنني أفضل أن تكون في الماء سنارة واحدة.

- حسنًا..

وكان الزنجي لا يزال يتجه بالزورق إلى عرض البحر، ونظرت فرأيت مجموعة من السمك الطيار تقفز مبتعدة قليلًا عن تيار الماء، وتطلعت خلفي، فرأيت هافانا تبدو رائعة في ضوء الشمس، وثمة باخرة على وشك الخروج من المرفأ.. وقلت لجونسون:

- أعتقد أنه ستتاح لك فرصة لمعركة مع إحداهن اليوم يا مستر جونسون؟

- لقد آن الأوان.. منذ متى ونحن نخرج للصيد؟

- منذ ثلاثة أسابيع حتى اليوم.

- إنها مدة طويلة لصيد سمكة.

- إنه سمك رائع.. وهو لا يوجد هنا إلا حين يفد على هذه البقعة، ولكن حين يفد تكون هناك مجموعة ضخمة منه، وإذا لم يأت في هذا الوقت فإنه لن يأتي أبدًا، إن القمر صار بدرًا، وهناك تيار مائي طيب،

وستهب حالًا نسمة رائعة.

- لقد كانت هناك سمكات صغيرات حين جئنا هنا أول مرة.

- أجل.. وكما قلت لك، فإن السمك الصغير يأتي أولًا ثم يتوقف قبل مجيء السمك الكبير.

- إنكم جميعًا معشر قباطنة زوارق الصيد تقولون نفس الكلام، فإما أن يكون الوقت مبكرًا جدًّا أو متأخرًا جدًّا، وإما أن الريح ليست طيبة، أو أن القمر ليس بدرًا، ولكنكم تأخذون نقودكم في أي الحالات.

- حسنًا.. أقسى ما في الصيد هو أن الوقت دائمًا إما مبكرًا جدًّا أو متأخرًا جدًّا، وفي معظم الأوقات تكون الريح غير ملائمة، أما حين يكون اليوم طيبًا في جميع الوجوه، فإنك تكون على الشاطئ لأنه ليس هناك من يستأجرك.

- ولكنك تعتقد أن اليوم ملائم.. أليس كذلك؟

- حسنًا.. لقد نلت من الإرهاق اليوم ما فيه الكفاية، ولكني أراهنك أنه سيكون أمامك اليوم عمل كثير.

- أتمنى أن يكون الأمر كذلك.

واستمر الزورق في السير، وذهب «إدي» إلى مقدمته ونام، وكنت أقف لأراقب ظهور ذيل السمكة، وكان الزنجي يغلبه النوم في كل لحظة، وكنت أراقبه هو أيضًا إذ يبدو أنه قد قضى عدة ليالٍ صاخبة.

وسألني جونسون:

- هل يضيرك أن تحضر لي زجاجة بيرة يا كابتن؟

- كلَّا يا سيدي..

ومددت يدى في الثلاجة لأحضر له زجاجة مثلجة، بينما عاد يسألني قائلًا:

- ألا تتناول واحدة؟

- كلا يا سيدي.. سأنتظر حتى المساء.

وفتحت الزجاجة، وبينما كنت أقدمها إليه إذ بي أرى الزعنفة البنية الضخمة تعلوها حربة أطول من ذراع، وشق رأس السمكة وكتفاها الماء واندفعت نحو الطعم، وكان جسمها في طول أكبر منشار لقطع الخشب، وصرخت أقول:

- أرخِ لها الحبل.

وقال جونسون: «إنها لم تلتقط الطعم».

- اجذبه إذن.

وكانت السمكة قد اندفعت إلى الطعم من الأعماق ولكنها أخطأته وكنت أعلم أنها ستستدير وتصعد إليه مرة أخرى، فقلت له:

- كن مستعدًّا لإرخاء الحبل لها، في نفس اللحظة التي تطبق فيها على الطعم.

وحينئذ رأيتها تصعد من الماء.. كانت سمكة جميلة ضخمة كغواصة، ثم اندفعت خلف الطعم وحربتها تشق الماء، وقلت:

- دع الطعم يدخل في فمها.

وترك جونسون البكرة فأخذت تئز، بينما استدارت سمكة المارلين الضخمة وغاصت، وأنا أرى جسمها يلمع كالفضة تحت الماء، ثم أسرعت تجاه الشاطئ، وقلت:

- اجذب الحبل قليلًا، ليس كثيرًا.

وأدار البكرة..

قلت: «ليس كثيرًا، أرخِ الحبل ثم اجذبها جذبة سريعة، ينبغى أن تجعل السنارة تعلق بها.. إنها على وشك أن تقفز».

وانتفضت السمكة مرتين ورأيت القصبة تنثني، ثم استقامت في حركة مفاجئة، وقفزت السمكة مثل كتلة من الفضة اللامعة في ضوء الشمس، وهي تنثر رذاذًا كحصان يسقط من صخرة عالية في الماء، وقلت له:

- قلل الجذب.

قال جونسون: «لقد مضت».

- بحق الجحيم لقد مضت فعلًا، ولكن قلل الجذب بسرعة.

وقفزت السمكة مبتعدة إلى عرض البحر، كانت سمكة رائعة لامعة كالفضة، وضخمة ككتلة من الخشب، وقال جونسون:

- لقد مضت..

قلت: «أرخِ لها الحبل، إن السنارة قد انغرست فيها جيدًا». وصرخت في الزنجي قائلًا: «دع الزورق يتقدم بأقصى سرعة» ورأيت السمكة تقفز في الهواء مرات والحبل يرتفع وينخفض معها..

وقلت: «والآن ستبدأ في الهرب، سنتبعها، واجعل الحبل مرخيًّا.. هناك كمية وافرة من الحبال».

وظلت السمكة تقفز إلى أعلى ونحن نتبعها بأقصى سرعة، وأنا أداوم الصراخ لجونسون أن يرخي لها الحبل، وفجأة رأيت قصبة الصيد تنثني والحبل ينقطع، وابتعدت السمكة وهي تداوم القفز وقلت له:

- ألم أقل لك ألا تجذب الحبل؟

- ولكنها استمرت تجذبه.

- وماذا في ذلك؟

- إنها جذبته..

وقلت له: «اسمع، إذا لم تمد للأسماك الحبل حين تريد، فإن الحبل سينقطع، إذ لا يوجد أي حبل يستطيع أن يوقفها».

- لو لم يكن الحبل قد قطع لتمكنت من صيدها!

- كانت الفرصة سانحة أمامك.

- إذن دعنا نحاول صيد واحدة أخرى..

وعاودنا السير بالزورق، وفجأة رأيت رذاذًا يتناثر كذلك الذي ينتج عن قنابل الأعماق، وبرزت سمكة أخرى في منتهى الضخامة، وحين التهمت الطعم شقت طريقها وسط المحيط، كانت سمكة سوداء قرمزية عيناها كوعاء كبير للحساء، وكان وزنها لا يقل عن ألف رطل بأية حال، وكنت أوشك أن أصرخ في جونسون أن يرخي لها الحبل، ولكن قبل أن أتفوه بأي حرف، رأيته يطير في الهواء والقصبة تنثني كالقوس لتضربه في معدته ويهوي في قاع الزورق، بينما تجذب السمكة القصبة مع كل المعدات وتمضى بها مبتعدة، وقلت له:

- أعتقد أن في هذا الكفاية اليوم؟

فسألني: «أي نوع من السمك كانت تلك؟».

قلت: «مارلين أسود».

- وكيف حدث الأمر؟

قلت: « تخيله كما تشاء، ولكن ثمن البكرة مائتان وخمسون دولارًا، وتساوي الآن أكثر من هذا، أما القصبة فقد كلفتني خمسة وأربعين دولارًا، ثم هناك ما لا يقل عن ستمائة ياردة من أجود الحبال».

وحينئذ ضربه «إدي» على ظهره وقال:

- مستر جونسون، إنك سيئ الحظ.. أتعلم أنني لم أر قط شيئًا كهذا يحدث أمامي.

وقلت له: «اخرس أنت أيها السكير».

قال «إدى »: «إنني أقول لك، يا مستر جونسون إن هذا أندر حادث رأيته في حياتي».

فقال جونسون: « وماذا أفعل إذا كانت سنارتي قد غمزت في سمكة مثل تلك؟».

وقلت له وأنا في منتهى الحزن: «هذا النوع من السمك هو ما أردت أن تخوض معه المعركة بمفردك».

فقال جونسون: «إنه سمك ضخم جدًّا، إن صيده نوع من العقاب».

قلت: «اسمع، إن سمكة مثل هذه في استطاعتها قتلك».

- ولكن الناس يصطادونها.

- إن من يعرفون الصيد يصطادونها، ولا تظن أنهم لا ينالون عقابهم.

وأخذ يتناقش هو و«إدي»، بينما كنت لا أزال مذهولًا من حجم تلك السمكة.

ولما كنت أشعر بمنتهى الحنق لفقدي معدات الصيد لم أستطع الانتباه إلى كلامهما وطلبت من الزنجي أن يعود بالزورق، ولم أقل لهما أي شيء، وكانا يجلسان هناك، «إدي» على أحد الكراسي وهو يمسك زجاجة جعة في يده، وجونسون بيده زجاجة أخرى، وقال لي

بعد هنيهة:

- كابتن.. هل لك أن تعد لي شرابًا؟

وأعددت له الشراب دون أن أقول شيئًا، ثم أعددت لنفسي قدحًا آخر، ثم أخذت أفكر في أن جونسون هذا قد حاول الصيد خمسة عشر يومًا، وفي النهاية علقت سنارته بسمكة قد يبذل صياد سنة في سبيل الوصول إليها، ولكن ها هو ذا يفقدها ويفقد معها معدات صيدي الثقيلة، ثم يجلس هناك في منتهى السرور، يشرب مع سكير.

وحين وصلنا رصيف الميناء وقف الزنجي ينتظر، فقلت:

- ما رأيك في الغد؟

فقال جونسون: «كلَّا.. لقد سئمت هذا النوع من الصيد».

- هل تريد أن تدفع للزنجي أجره؟

- بكم أنا مدين له؟

- دولار، ويمكنك أن تعطيه بقشيشًا إن أردت.

وهكذا أعطى جونسون للزنجي دولارًا وقطعتين من فئة العشرين سنتا، وسألني الزنجي وهو يريني قطعتي النقود: «لماذا هاتين؟»

فقلت له بالإسبانية: «بقشيش.. لقد استغنى عن خدماتك».

- لن آتي غدًا؟

- كلَّا.

وتناول الزنجي كرة الخيط التي يربط فيها الطعم، ثم نظارته السوداء، ووضع قبعته القش وانصرف دون تحية، وسألت مستر جونسون:

- متى تريد أن نتحاسب؟

فقال جونسون: «سأذهب للبنك غدًا صباحًا، وفي استطاعتنا أن نتحاسب أصيل اليوم».

- هل تعرف عدد الأيام؟

- خمسة عشر.

- كلا.. ستة عشر يومًا باحتساب اليوم، ثم يوم عن كل أسبوع، وبهذا تصير ثمانية عشر يوما، ثم هناك القصبة والبكرة والحبل التي فقدت اليوم.

- إن معدات الصيد على حسابك.

- كلَّا يا سيدي.. لا تكون على حسابي حين تفقدها أنت بهذه الكيفية.

- لقد دفعت أجرًا يوميًّا للزورق، أما المعدات فعلى حسابك.

قلت: «كلَّا يا سيدي.. لو أن سمكة كسرتها ولم يكن هذا بسبب خطأ منك، فإن الأمر يكون مختلفًا، ولكنك أضعت كل تلك المعدات بسبب إهمالك.

- لقد جذبتها السمكة من يدي.

- لأنك جذبت الحبل ولم تضع القصبة في حفرتها.

- ليس هذا من شأنك.

وقلت لجونسون: «أنت مدين بمائتين وخمسة وتسعين دولارًا ثمن تلك المعدات».

قال: «هذا ليس عدلًا، ولكني لا أود إثارة مشاكل، سأدفع ثمن هذه الأشياء رغم عدم اقتناعي».

إذن هناك ثمانية عشر يومًا بحساب اليوم خمسة وثلاثين دولارًا بالإضافة إلى مائتين وخمسة وتسعين دولارًا..».

قلت له: « لقد أعطيتنى مائة، وسأقدم لك قسيمة بالنفقات، وسأخصم ثمن ما تبقى من الأشياء».

فقال جونسون: «هذا معقول».

وقال «إدي»: اسمع يا مستر جونسون، لو عرفت الطريقة التي يعاملون بها الغرباء عادة، لعرفت أن هذا المعاملة أكثر من معقولة، إنها معاملة غير عادية والكابتن يعاملك كما لو كان يعامل والدته.

- سأذهب للبنك غدًا، ثم آتي إليكما بعد الظهر، وسأستأجر الزورق بعد غد.

قلت: «حسنًا.. ما رأيك في كأس من الشراب؟».

فقال جونسون: «رائع، لا مشاعر عدائية بيننا الآن.. أليس كذلك؟».

قلت له: «كلا يا سيدى..».

وهكذا جلس ثلاثتنا على ظهر الزورق نشرب معًا..

ظللت أشتغل في الزورق طيلة صباح اليوم التالى.. أستبدل الزيت وأصلح شيئًا أو آخر، وعند الظهر ذهبت إلى البلدة حيث تناولت وجبة طيبة بأربعين سنتًا، ثم اشتريت بعض الأشياء لآخذها إلى البيت إلى زوجتي وبناتي الثلاث، وحين فرغت من هذه الأشياء تناولت زجاجة جعة في حانة «دونوفان»، ثم عدت متخذًا طريقي إلى رصيف سان فرانسيسكو وتوقفت في الطريق حوالي ثلاث أو أربع مرات لأتناول الجعة، ثم عدت إلى الزورق وأنا أشعر بسعادة غامرة، ولم يكن قد تبقى معي سوى أربعين سنتًا، وكان فرانكي قد جاء معي إلى الزورق، وجلسنا ننتظر جونسون وشربنا زجاجتين من البيرة المثلجة من ثلاجة الزورق.

– ولم يكن «إدي» قد ظهر طوال النهار أو الليل، ولكني كنت أعلم أنه سيظهر إن عاجلًا أو أجلًا حين لا يستطيع الشرب على الحساب، وكان دونوفان قد أخبرني أن «إدي» كان عنده هو وجونسون في الليلة الماضية، وأنهما شربا على حساب «إدي»، وجلسنا ننتظر، وبدأت أتعجب لعدم مجيء جونسون، وكنت قد تركت خبرًا على رصيف الميناء بأن يقولوا له أن ينتظرني على ظهر الزورق أثناء غيابي، ولكنهم قالوا لي إنه لم يأت، وتخيلت أنه ربما تأخر في النوم من أثر مجهود اليوم المنصرم، ولكن المصارف تظل مفتوحة حتى الساعة الثالثة

والنصف، ورأيت حينئذ طائرة تحلق في السماء، وحين أصبحت الساعة الخامسة والنصف كان قلقي قد تزايد.

وفى الساعة السادسة أرسلت فرانكي إلى الفندق ليرى إذا كان جونسون هناك، وظلت أنتظر حتى تأخر الوقت وتضاعف قلقي، فقد كان مدينًا لي بثمانمائة وخمسة وعشرين دولارًا. كان قد مضى على انصراف فرانكي ما يزيد قليلًا على نصف الساعة، وحين رأيته قادمًا كان يسير بسرعة ويهز رأسه وقال:

- لقد سافر بالطائرة.

حسنًا.. هكذا صار الوضع، وكانت القنصلية مغلقة، ومعي أربعون سنتًا، والطائرة الآن قد وصلت ميامي، ولم يكن في إمكاني أن أرسل برقية، لقد كان بارعًا مستر جونسون هذا، ولكنها كانت غلطتي، وقلت لفرانكي:

- حسنًا.. ربما كان من الأفضل أن نشرب زجاجة مثلجة، فقد اشتراها مستر جونسون.

كانت قد تبقت ثلاث زجاجات.

وكان فرانكي يشعر بنفس الضيق الذي أشعر به، وظل يربت على ظهري ويهز رأسه.. كنت قد أفلست، فقدت خمسمائة وثلاثين دولارًا قيمة الإيجار، ومهمات لا أستطيع شراءها ولا بثلاثمائة وخمسين دولارًا، ومن يوم مضى كنت قد رفضت ثلاثة آلاف دولار

لأنقل ثلاثة غرباء إلى مكان ما، مجرد أن أخرجهم من هذه البلاد، حسنًا، ماذا بوسعي أن أفعل الآن؟ ليس في استطاعتي نقل بضاعة؛ لأنه لا توجد معي نقود لشراء ما يلزم، فضلًا عن أن عمليات النقل لا ربح فيها، هل أبيع الزورق؟ كلَّا، فالبلدة ملأى بالزوارق ولن يوجد لها مشتر، أقضي عليَّ أن أذهب مفلسًا إلى بيتي، وأقضى الصيف دون أكل في تلك البلدة؟ وبالإضافة إلى هذا فإن لديَّ أسرة، صحيح أن إيجار المسكن مدفوع مقدمًا، ولكن ليس لديَّ حتى نقود لأزود الزورق بالوقود، حسنًا.. هذا الوغد مستر جونسون، وقلت:

– فرانكي، ينبغى علىّ أن أنقل الحمولة، إذ لا بد من الحصول على بعض النقود.

فقال فرانكي: «سأدبر لك الأمر».

كان دائم التسكع حول الميناء، يؤدي أعمالًا غريبة، وهو أقرب للصمم ويشرب كثيرًا جدًّا كل ليلة، ولكنك لا تجد صديقًا أكثر منه إخلاصًا أو أرق قلبًا، وكنت أعرفه منذ أن بدأت العمل في المنطقة، وكان قد ساعدني في عمليات التعبئة مرات عديدة، وحين بدأت أؤجر زورقي لصيد السمك في كوبا، تعودت أن أراه حول الميناء وحول المقهى، وكان يبدو عليه العناء ودائمًا ما يبتسم بدلًا من الكلام، ولكن هذا يسبب صممه، وسألني فرانكي:

– هل تحمل أي شيء؟

قلت: «بالتأكيد، ليس لي أن أختار الآن».

- أي شيء؟

- بالتأكيد.

فقال فرانكي: «سأدبر الأمر.. أين ستكون؟».

قلت له: « سأكون في مقهى برلا، إذ لا بد أن آكل».

❊ ❊ ❊

الفصل الثاني

صفقة رابحة

دخلت مقهى برلا وجلست إلى منضدة.. كانوا قد وضعوا لوحًا زجاجيًّا جديدًا في النافذة التي أطلق عليها الرصاص، وكان رف الواجهة قد أعيد تثبيته وترتيبه، وكانت على البار كميات ضخمة من المشروبات وبعض المأكولات، وكانت هناك منضدة، وقد بدأ الجالسون إليها في لعب الدومينو، وتناولت شوربة فول و لحمًا وبطاطس مسلوقة بخمسة عشر سنتًا، ثم زجاجة جعة، فصار الحساب ربع دولار، وحين تحدثت مع الساقي عن إطلاق الرصاص رفض أن يصرح لي بشيء.. كانوا جميعا يخافون بشدة.

وفرغت من وجبتي، وجلست أدخن سيجارة وأنا أحاول إبعاد الهموم عن رأسي، وحينئذ رأيت فرانكي داخلًا من الباب، وخلفه شخص آخر من الجنس الأصفر، وقلت في نفسي : إذن فالعميل من الجنس الأصفر. وقال فرانكي وهو يبتسم:

– هذا مستر سنج.

وسألنى مستر سنج: «كيف حالك؟».

كان مستر سنج أنعم مظهرًا من أي مخلوق رأيته في حياتي، كان صينيًّا، ولكنه يتكلم الإنجليزية كواحد من أهلها، ويرتدي بذلة بيضاء وقميصًا حريريًّا وربطة عنق سوداء وقبعة من طراز بناما التي تساوي مائة وخمسة وعشرين دولارًا، وسألني:

- هل أتناول شيئًا من القهوة؟

- إذا شئت.

فقال مستر سنج: «شكرًا.. هل نحن وحيدون تمامًا هنا؟».

فقلت له: «فيما عدا كل الموجودين في المقهى»!.

فقال مستر سنج: «حسنًا، هل لديك زورق؟».

قلت: «طوله ثمانية وثلاثون قدمًا، ومحركه قوته مائة حصان ماركة كيرماث».

قال مستر سنج: «آه.. لقد تخيلته أكبر من ذلك».

- في استطاعته أن يحمل مائتين وخمسة وستين صندوقًا دون أن يمتلئ.

- هل يضيرك أن تؤجره لي؟

- بأية شروط؟

- ألا تذهب أنت عليه، سأعد له قبطانًا وطاقم بحارة.

قلت: «كلا.. إنني عليه حيثما يذهب».

قال مستر سنج: «أفهم» ثم قال لفرانكي: «هل يضيرك أن تتركنا؟».

وبدا على فرانكي أنه مهتم بالموضوع وابتسم له. فقلت:

- إنه أصم، كما أنه لا يفهم الإنجليزية كثيرًا.

فقال مستر سنج: «حسنًا، أنت تتكلم الإسبانية، قل له أن ينضم إلينا فيما بعد».

وأشرت لفرانكي بأصبعي، فنهض وذهب إلى البار، وقلت:

- أنت لا تتكلم الإسبانية؟

فقال مستر سنج: «أوه، أجل.. والآن ما هي الظروف التي تجعلك.. أو التي أدت بك إلى أن..».

- إنني أفلست.

فقال مستر سنج: «حسنًا، هل هناك أي دين على الزورق؟ هل يمكن الحجز عليه؟».

- كلَّا..

فقال مستر سنج: «هذا طيب.. كم يستوعب زورقك من مواطنيّ التعساء؟».

- أتقصد يحملهم؟

- نعم..

- ما طول المسافة؟

- رحلة يوم؟

قلت: لا أدري، إنه يتسع لاثني عشر شخصًا، إذا لم يكن معهم متاع.

- لن يكون معهم متاع.

- وإلى أين تريد نقلهم؟

فقال مستر سنج: سأترك هذا لك.

- أقصد إلى أين سأنقلهم؟

- ستنقلهم حتى تورتوجاس، حيث سينقلهم مركب شراعي.

فقلت: اسمع.. هناك منارة عند تورتوجاس على رأس لوجرهيد فيها جهاز إرسال واستقبال.

فقال مستر سنج: بالضبط، سيكون من الحماقة جدًّا أن تنزلهم هناك.

- ماذا إذن؟

- لقد قلت إنك ستنقلهم حتى هناك، وذلك هو طريقهم.

- أجل..

- لك أن تنزلهم حيثما شاء حسن تقديرك.

وهل سيذهب المركب الشراعي إلى تورتوجاس لأخذهم؟

فقال مستر سنج: كلّا بالطبع.. يا للغباء.

- كم يساوي الرأس؟

فقال مستر سنج: خمسين دولارًا.

- كلّا..

- ما رأيك في خمسة وسبعين؟

- كم ستتقاضى أنت عن الرأس؟

- أوه، هذا خارج عن الموضوع.. هناك جوانب عديدة للعملية، والأمر لا يتوقف على قطع التذاكر فحسب.

قلت: أجل، ولن أتقاضى أجرًا عن العملية الأخرى، أليس كذلك؟

فقال مستر سنج: إنني أرى وجهة نظرك بوضوح، هل نقول مائة دولار للقطعة؟

فقال: اسمع، أتعلم ما طول المدة التي سأقضيها في السجن إذا ضُبطت وأنا أقوم بهذا العمل؟

قال مستر سنج: عشر سنوات.. عشر سنوات على الأقل.. ولكن ليس هناك من سبب لذهابك إلى السجن يا كابتن، إنك ستقوم بمغامرة واحدة فقط.. وذلك أثناء تعبئة المركب بركابك، وكل ما عدا ذلك متروك لتصرفك.

- وإذا ألصقوا التهمة بك؟

- الأمر في غاية البساطة، سأتهمك بخيانتي، وسأدفع تعويضًا نسبيًّا، ثم أشحنهم مرة أخرى، وهم متأكدون بالطبع من أن رحلتهم خطرة.

- وماذا يكون من أمري؟

- أعتقد أنني سأبلغ القنصلية.

- فهمت.

- إن ألفًا ومائتي دولار، ليست بالمبلغ الحقير في هذه الفترة يا كابتن!

- متى سأحصل على النقود؟

- مائتان عندما توافق، وألف عندما تعبئ المركب.

- افرض أنني هربت بالمائتي دولار؟

فابتسم قائلًا: لن أستطيع بالطبع أن أفعل شيئا، ولكني أعلم أنك لن تتصرف بهذا الشكل يا كابتن.

- هل أحضرت المائتي دولار معك؟

- طبعًا..

- ضعها تحت الطبق.

ففعل.. وقلت:

– حسنًا، سأغادر الميناء صباحًا، ثم أرسو في الظلام، والآن من أين سنشحن؟

– ما رأيك في باكورانو؟

– حسنًا.. هل اتفقت عليها؟

– طبعًا..

فقلت: أما بشأن الشحن، عليك أن تظهر ضوءين: واحدًا فوق الآخر في البقعة المحددة، وسأحضر حين أراهما، وستأتي أنت في زورق ثم نشحن من الزورق، وعليك أن تأتي بنفسك وتحضر النقود، ولن أجعل واحدًا منهم يركب الزورق قبل أن آخذ النقود.

فقال: كلا، نصف المبلغ عندما تبدأ الشحن والنصف الآخر عندما تنتهي.

فقلت: حسنًا، هذا معقول.

– إذن فكل شيء واضح؟

قلت له: حسنًا.. في أي وقت ستكون هناك؟

– قبل منتصف الليل.

قلت: حسنًا.. أعتقد أن هذا كل شيء.

– كيف تريد النقود؟

– أوراقًا من فئة المائة دولار تكون أفضل.

ونهض وراقبته وهو ينصرف، وابتسم له فرانكي وهو يخرج، ولم ينظر مستر سنج إليه، كان ناعم المظهر جدًّا، صينيًّا بحق، صينيًّا وغدًا.

وجاء فرانكي إلى المنضدة وقال: حسنًا؟

- من أين عرفت مستر سنج؟

فقال فرانكي: إنه يشحن الصينيين، عمل خطير.. آه؟

- منذ متى عرفته؟

فقال فرانكي: إنه هنا منذ حوالى عامين، كان هناك شخص يشحنهم قبله، ثم قتله شخص ما.

- وسيقتل شخص ما مستر سنج أيضًا..

قال فرانكي: بالتأكيد، لم لا؟ عمله خطير جدًّا.

قلت: عمل حقير.

قال فرانكي: بل عمل خطير، أن تشحن صينيين ولا يعودون أبدًا، ويرسل صينيون آخرون خطابات يقولون فيها إن كل شيء على ما يرام.

قلت: رائع.

- ولكن هذة الفئة من الصينيين لا تعرف الكتابة.. إن جميع الصينيين الذين يعرفون الكتابة أغنياء، أما هؤلاء، فلا يأكلون شيئًا ويعيشون على الأرز، يوجد هنا مائة ألف صيني وثلاث نساء صينيات فقط.

- لماذا؟

-الحكومة لا تسمح لهن.

قلت: إلى الجحيم بهذا الوضع.

- هل ستقوم له بالعمل؟

- ربما..

قال فرانكي: عمل جيد، أحسن من السياسة، ربحه وفير، ولكنه عمل خطير جدًّا.

قلت له: تناول زجاجة جعة..

- ألم تعد قلقًا الآن؟

قلت: كلا.. عمل ضخم خطير، والإنسان مضطر إليه.

قال فرانكي وهو يربت على ظهري: نعم، إن هذا يجعلني أسعد من أي شيء.. كل ما أريده أن تكون سعيدًا.. الصينيون عملية طيبة.. آه؟

- رائعة.

وقال فرانكي: إن هذا يجعلني سعيدًا.

ورأيت أنه على وشك البكاء لشدة سروره لأن كل شيء قد صار على ما يرام، لذا رَبَتُّ على ظهره، كان فرانكي رائعًا.

كان أول شيء فعلته في الصباح هو أني اتصلت بوكيل الميناء

وسألته أن يعطينا تصريح الخروج،وطلبت قائمة بأسماء البحارة، فقلت له لن يكون هناك بحارة.

– هل ستقوم بعملية العبور وحدك يا كابتن؟

– تمامًا..

– وما الذي صار إليه أمر زميلك؟

فقلت له: إنه سكران.

– ولكن من الخطر جدًّا أن تذهب وحدك.

قلت: إن المسافة تسعون ميلا فقط، فهل تعتقد أن الاحتفاظ بسكير على ظهر المركب سيؤدي إلى أي اختلاف في الوضع؟

وأسرعت بالمركب إلى رصيف شركة ستاندارد أويل وملأت خزانيها، كان في استطاعتها استيعاب حوالي مائتي جالون إذا ملأت الخزانين، وكنت أكره أن أدفع ثمانية وعشرين سنتًا ثمنًا لجالون الوقود، ولكني لم أكن أعلم إلى أين يمكن أن تذهب.

ومنذ أن رأيت الصيني وأخذت النقود فإنني كنت أشعر بالقلق من هذه العملية، ولا أعتقد أنني نمت طوال الليل، وعدت بالمركب إلى رصيف سان فرانسيسكو، وهناك وجدت «إدي» في انتظاري على الرصيف..

وقال لي ملوحًا:

– هاللو هاري.

وقذفت إليه بالحبل فالتقطه وثبته بسرعة، ثم صعد إلى المركب. كان قد ازداد طولًا وازدادت عيناه احمرارًا، وبدا عليه السكر أكثر من أي وقت مضى، ولم أقل له شيئًا فسألني:

– ما رأيك في ذلك الفتى جونسون الذي هرب بهذا الشكل يا هاري؟ ما رأيك في هذا؟

فقلت له: انصرف من هنا.. إنك تسمم أفكاري.

– أخي، إنني أشعر بالحزن من أجل هذا، تمامًا كما تشعر أنت.

قلت له: انزل من على المركب.

فما كان منه إلا أن استقر في المقعد ومد رجليه أمامه، وقال:

– لقد سمعت أننا سنخرج إلى عرض البحر اليوم، حسنًا، أعتقد أنه لا فائدة من البقاء هنا على رصيف الميناء.

– أنت لن تذهب.

– ما الموضوع يا هاري؟ ليس من العقل أن تتعارك معي.

– إذن غادر المركب.

–أوه، تقبل الأمور ببساطة.

وضربته على وجهه، فوقف وصعد إلى الرصيف.. ثم قال:

– إنني لم أكن لأفعل نفس الشيء معك يا هاري.

قلت له: صحيح، أنت لم تكن لتفعل هذا، ولكني لن آخذك معي،

هذا كل ما في الأمر.

- حسنًا.. إذن ماذا كان يدعوك لضربي؟

- حتى تصدق أنني لن آخذك.

- وماذا تريدني أن أفعل؟ أبقى هنا لأموت جوعًا؟

قلت: فلتمت جوعًا، بحق الجحيم، يمكنك أن تعود إلى المعدية وتعمل هناك.

فقال: أنت لا تتعامل معي بصراحة.

قلت له: ومن ذا الذي عاملته أنت بصراحة طوال حياتك؟ أنت كفيل بالكذب حتى على أمك.

كان هذا حقًّا، ولكني شعرت بالأسى لضربي إياه، وأنت تعلم مدى شعور الإنسان حين يضرب مخمورًا، ولكني لم أكن لأحمله معي بعد أن صارت الأمور إلى ما صارت إليه، حتى ولو رغبت في ذلك.

- ما رأيك لو أعطيتني دولارين يا هاري؟

فأعطيته ورقة من فئة الخمسة دولارات من تلك التي أخذتها من الصيني.

- كنت أعلم أنك دائمًا صديقي الحميم يا هاري، لم لا تأخذني معك؟

- لأنك مشئوم..

فقال: إنك ثائر الآن، لا تهتم يا صديقي القديم، سيتملكك السرور لو رأيتني حينذاك.

والآن وبعد أن حصل على النقود انصرف مسرعًا، ولكن رؤيته وهو يسير كانت تضايقني، فقد كان يسير وكأن مفاصله تندفع إلى الخلف..

ذهبت بعد ذلك إلى مقهى برلا، وقابلت وكيل الميناء فأعطاني الأوراق واشتريت له شرابًا، ثم تناولت غذائي، وحينئذ وصل فرانكي وقال:

- لقد أعطاني صديق هذا لك.

وناولنى شيئًا كأنه أنبوبة ملفوفة في ورق ومربوطة بحلقة مطاط كانت تبدو وكأنها صورة فوتوغرافية، وحين رفعت الورق وفردتها، وأنا أعتقد أنها ربما كانت صورة التقطها أحدهم للمركب، وجدتها صورة مكبرة لرأس وصدر زنجي وقد قطعت رقبته قطعًا واضحًا من الأذن حتى الأذن، ثم خيطت بعناية، وعلى صدره كارت كتب عليه بالإسبانية : «هذا ما نفعله لذوي الألسنة الطويلة».

وسألت فرانكي: من أعطاك إياها؟

فأشار إلى صبي إسباني من الذين يعملون في أرصفة الميناء، وكان الصبي على وشك الانصراف، ولكنه وقف برهة بجوار مائدة الطعام، فقلت لفرانكي:

- سله أن يأتي إلى هنا....

وجاء الصبي وقال: إن شابين أعطياها له حوالى الساعة الحادية عشرة، وقد سألاه إذا ما كان يعرفني فأجاب بالإيجاب.. ثم أعطاها لفرانكي ليوصلها لي، وقد أعطياه دولارًا، وكانا يرتديان ملابس ثمينة.

وقال لفرانكي: مسائل سياسية.

قلت: أجل.

- إنهم يعتقدون أنك أبلغت البوليس بأنك قد قابلت الفتية هذا الصباح هنا.

- أوه.... أجل...

فقال فرانكي: إن السياسة شيء ضار، من الأفضل أن تنصرف.

وسألت الصبي الإسباني: هل تركا أية رسالة؟

فقال: كلا... طلبا أن أعطيك هذا فقط.

قلت لفرانكي: إنني سأغادر المكان الآن...

فقال فرانكي: السياسة شيء ضارّ، شيء ضار جدًّا.

وجعلت من الأوراق التي أعطانيها وكيل الميناء لفة، ثم دفعت قائمة الحساب، وخرجت من المقهى وعبرت الميدان ثم البوابة، وتملكني الفرح حين وصلت إلى رصيف الميناء، فهؤلاء الفتيان قد شكوا في أمري، وهم يعتقدون أنني قد أخبرت شخصًا ما بما حدث في الصباح، وهم حين يتملكهم الخوف فإنهم يستثارون، وحين

يستثارون تتملكهم الرغبة في القتل.

صعدت إلى ظهر المركب، وأدرت الآلات لتسخينها... ووقف فرانكي على الرصيف للمراقبة، كان يبتسم ابتسامته اللطيفة الصماء، وعدت إليه وقلت: اسمع، لا تقحم نفسك في هذه المشاكل.

لم يكن يستطيع سماعي، واضطررت إلى الصراخ ليسمعني.

فقال: إنني سياسي محنك!

ورفع المرسى، وانطلق بي المركب..

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث

مفاجأة على ظهر المركب

لوحت لفرانكي الذي قذف لي بالحبل، ووجهت المركب إلى القنال، كانت هناك سفينة إنجليزية محملة بالسكر، فتجاوزتها مسرعا وخرجت من الميناء، وحولت اتجاهي إلى كي وست شمالًا، ثم تركت عجلة القيادة، وذهبت للف حبل المرسى، ثم عدت إلى عجلة القيادة لأحافظ على خط سير المركب، وخلفت هافانا ورائي وأنا أحاذي الجبال.

وبعد لحظات قليلة اختفت عن ناظري معالم المدينة، وكنت بالكاد أستطيع رؤية قبة الكابيتول، لم يكن هناك تيار مائي قوي مثل ذلك الذي كان بالأمس حينما كنا نصطاد، كانت هناك فقط نسمة خفيفة..

أوقفت الموتور، إذ لم يكن هناك مبرر لفقدان الوقود، وتركت المركب للتيار، كان في إمكاني أن أحدد طريقي عندما يحل الظلام بأضواء المدينة، وبدا أن التيار سوف يسحبني الاثني عشر ميلًا الباقية حتى باكورانو على حلول الظلام.

وجلت برهة فوق ظهر الكابينة أراقب الجو حولي، ولم تكن هناك سوى أسماك بنية صغيرة، ووجدت أنني على وشك الخروج من مياه هافانا والدخول في مياه كي وست.

وعدت بعد لحظة إلى غرفة القيادة مرة أخرى، فوجدت «إدي» هناك...

- ماذا حدث؟.. ماذا حدث للآلات؟

- لقد تعطلت..

- لِمَ لَمْ ترفع الغطاء؟

قلت: أوه... إلى الجحيم.

أتعلمون ماذا فعل؟.. كان قد عاد إلى المركب ورفع غطاء الآلات الأمامي، ونزل إلى الكابينة السفلى ثم استغرق في النوم، كانت معه زجاجتان من الخمر، وحين أدرت المحرك استيقظ ثم عاود النوم، وحين أوقفته وتركت المركب للتيار استيقظ مرة أخرى، وقال:

- كنت أعلم أنك ستأخذني يا هاري.

قلت: سآخذك إلى الجحيم، حتى اسمك لم يقيد في قائمة

البحارة، إن عقلي يدعوني الآن للقذف بك إلى الماء.

فقال: لا شك أنك تمزح يا هاري... ينبغي علينا نحن الاثنين أن نتكاتف حين تكون هناك مشكلة.

قلت: أنت، بلسانك الطويل.. من ذا الذي يثق بفمك حين تكون مخمورًا؟

- إنني رجل طيب يا هاري.. ضعني في محل التجربة وسترى أي رجل ممتاز أكون.

وقلت له: أعطني زجاجتي الخمر.

كنت أفكر في شيء آخر..

وأحضر الزجاجتين، فتناولت جرعة من الزجاجة المفتوحة ووضعتها أمامي عند عجلة القيادة، ووقف هناك وأخذت أتطلع إليه.. كنت آسفًا من أجله، ومن أجل ما ينبغي عليّ عمله، يا للجحيم، لقد عرفته منذ أن كان رجلًا ممتازًا.

- ماذا حدث للمركب يا هاري؟

- إنه بخير..

- ما الموضوع إذن؟.. لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

قلت وأنا أرثي له:

- أخي أنت تعيش وسط عديد من المشاكل.

- ماذا تقصد يا هاري؟

قلت: لا أدري حتى الآن.. إن الصورة لم تكتمل تمامًا في ذهني بعد.. وجلسنا هناك فترة، ولم أكن أحس بأنني أود التحدث معه أكثر من ذلك، كنت أعلم أن الكلام معه غير مثمر.. ثم نزلت إلى أسفل وأحضرت البندقية سريعة الطلقات والبندقية الونشستر اللتين كنت أحتفظ بهما دائمًا في الكابينة السفلى، وعلقتهما خلف عجلة القيادة مباشرة بحيث أستطيع الوصول إليهما بسهولة.

ثم أخرجت البندقية السريعة من جرابها وجربتها عدة مرات، ثم ملأتها بالرصاص ودفعت رصاصة في الماسورة ثم ملأت خزانة البندقية الونشستر أيضًا بالرصاص، ثم أخرجت المسدس عيار ٣٨ الذي كان عندي منذ أن كنت في قوة بوليس ميامي، أخرجته من تحت الوسادة ونظفته ووضعت عليه الزيت ثم ملأته بالرصاص ووضعته في حزامي، وقال «إدي»:

- ماذا في الأمر؟ بحق الجحيم ماذا في الأمر؟

قلت له: لا شيء..

- ولم كل تلك الأسلحة اللعينة إذن؟

قلت: إنني أحملها دائمًا على ظهر المركب لأطلق الرصاص على الطيور التي تلتهم الطعم، وكذلك على سمك القرش.

فقال «إدي»: ماذا في الأمر؟ ماذا في الأمر؟

– ستقوم بمهمة صغيرة عند باكورانو، وسأخبرك بها فيما بعد.

ولم أرد أن أقول له مقدمًا حتى لا يضطرب ويصبح عديم الجدوى، وقال:

– لن تستطيع أن تجد من هو أفضل مني يا هاري، إنني الرجل الذي يصلح للعمل، وإنني معك في أي شيء.

ونظرت إليه بجسده الطويل النحيل المهتز، ولم أقل شيئًا، فسألني:

– اسمع يا هاري، هل لك أن تعطيني جرعة واحدة؟ أنا لا أريد أن تعتريني الرعدة.

وأعطيته الجرعة، وجلسنا ننتظر حلول الظلام، كان الغروب رائعًا، ونسمة خفيفة لطيفة تهب، وحين غابت الشمس عن الأفق تمامًا، أدرت الآلات وسرت بالمركب في بطء متجهًا إلى الأرض.

* * *

الفصل الرابع

شحنة من البشر

وقفنا بعيدًا عن الشاطئ بحوالي ميل من الظلام.. كان التيار قد بدأ يشتد حين غابت الشمس، ولاحظت أنه يجري مندفعًا إلى الداخل، كان في إمكاني رؤية أضواء مورو بعيدة إلى الغرب، ثم أنوار هافانا الباهرة، أما الأضواء التي كانت في مواجهتنا فكانت تنبعث من رانسون وباراكوا، ووجهت المركب ضد التيار حتى اجتزنا باكورانو، واقتربنا من كوجيمار، ثم تركته يسير مع التيار، كان الظلام قد ازداد كثافة، ولكني كنت أعرف مكاننا جيدًا، وأطفأت كل الأنوار التي على ظهر المركب، وسألني إدي وقد بدأ يقلق:

- هاري.. ماذا سيحدث؟

- ماذا تعتقد؟

قال: لا أدرى، ولكنك بعثت فيَّ القلق.

كانت الرعدة على وشك أن تصيبه، وحين اقترب مني كان تنفسه كالفحيح.

- كم الساعة الآن؟

فقال: سأهبط إلى أسفل لأرى.

وصعد ليقول إنها التاسعة والنصف، فسألته:

- هل أنت جائع؟

فقال: كلا.. أنت تعلم أنني لا أستطيع أن أتناول طعامًا يا هاري..

وقلت له: حسنًا.. في استطاعتك أن تتناول جرعة.

وسألته بعد أن تناولها كيف يشعر.

فقال: في أحسن حال.

وقلت له:

- سأعطيك جرعتين أخريين بعد لحظة قصيرة، وإني أعلم أنك لا تحسن التصرف إلا حين تتناول شرابك، ولكن ليس على ظهر المركب ما فيه الكفاية.. ولذلك ينبغي أن تتقبل الأمر ببساطة..

فقال «إدي»: قل لي ماذا سيحدث؟

قلت له في الظلام: اسمع.. إننا ذاهبان إلى باكورانو لالتقاط اثني عشر صينيًّا، ستمسك أنت بعجلة القيادة وتفعل ما سآمرك به، سنأخذ

الاثني عشر صينيًّا على ظهر المركب وسنسجنهم في الغرفة السفلى.. اذهب الآن إلى المقدمة وأغلق الباب السفلي.

وذهب ورأيت ظله في الظلام، ثم عاد وهو يقول:

- هاري.. هل أستطيع أن أتناول جرعة من الاثنتين الآن؟

قلت: كلا.. أريد منك أن تتغلب على الخمر، وأنا لا أريدك في حالة لا تصلح معها لشيء.

- إنني رجل عظيم يا هاري، وسترى.

قلت: أنت سكير.. اسمع، سيحضر أحد الصينيين هؤلاء الاثني عشر، وسيعطيني بعض المال عند بدء الشحن، وحين يصيرون جميعًا على ظهر المركب سوف يعطيني بعضًا آخر من المال، وحين تراه قد بدأ يعطيني النقود للمرة الثانية، سر بالمركب بأقصى سرعته، اتجه به إلى عرض البحر، لا تعر أي شيء يحدث اهتمامًا، عليك أن تستمر في السير به مهما حدث، هل فهمت؟

- أجل..

- وإذا حدث أن بدأ أي صيني يحاول الخروج من الكابينة أو من الباب السفلي، ما دمنا قد خرجنا إلى عرض البحر ونسير في طريقنا، فلتأخذ هذه البندقية السريعة الطلقات، وتطلق عليهم الرصاص بأقصى سرعة قبل خروجهم، هل تعرف كيف تستعمل بندقية سريعة الطلقات؟

- كلا.. ولكن يمكنك أن تريني.

- لن تتذكر مطلقًا كيفية استعمالها.. هل تعرف كيف تستعمل البندقية الونشستر؟

- مجرد تحريك المزلاج، ثم إطلاق الرصاص!

قلت: بالضبط، ولكن إياك أن تحدث أي ثقوب في المركب نفسه.

فقال «إدي»: يستحسن أن تعطيني تلك الجرعة الأخرى.

- حسنًا.. سأعطيك جرعة صغيرة.

ولكني أعطيته جرعة حقيقية، كنت أعلم أن تلك الجرعات لن تجعله يسكر الآن، وبعد أن شرب «إدي» قال كما لو كان سعيدًا:

- إذن فسنهرب الصينيين.. حسنًا، والله لقد قلت دائمًا إنني لو أفلست فسأهرب الصينيين!

فقلت له: ولكنك طبعًا لم تفلس قط من قبل.... آه؟

ولكنه كان في غاية المرح..

وقبل أن تصل الساعة إلى العاشرة والنصف، كنت قد أعطيته ثلاث جرعات ليحتفظ بشجاعته، وانتظرت بعض الوقت ثم سَيَّرت المركب ببطء.

وباكورانو عبارة عن كهف فيه رصيف ضخم، كان يستعمل لشحن الرمال، وهناك نهر صغير يندفع إلى هذا الكهف في موسم

الأمطار، وكان الشماليون يأتون في الشتاء ليجمعوا الرمال، ثم يأتون في مراكب شراعية لحملها وحمل الغرين من النهر، وفي وقت ما كانت هناك بلدة في تلك المنطقة، ولكن الأعاصير محت البلدة واختفى كل شيء، ولم يعد هناك سوى بيت صغير مبني من الحطام الذي تركته الأعاصير، ويعتبرونه ناديًا يأتي إليه محبو الاستجمام والنزهة من هافانا في أيام الآحاد، وهناك منزل آخر يعيش فيه مندوب الحكومة، ولكنه بعيد عن الشاطئ.

حين اقتربت من الشاطئ استطعت أن أشم رائحة النباتات البحرية والأشجار التي على الشاطئ وقلت لإدي:

- قده إلى الإمام..

قال: ليس هناك ما يُصطدم به على هذا الجانب، إن الشعاب المرجانية على الجانب الآخر إلى الداخل.

ومن هذا يتضح لك أنه كان رجلًا رائعًا في يوم من الأيام، وقلت له:

- خذ حذرك منها.

ووجهت المركب إلى حيث يكون في استطاعتهم رؤيتها، وحيث إنه لم يكن هناك صوت لأمواج البحر، فقد كان في إمكانهم سماع صوت الآلات، ولم أكن أرغب في البقاء مدة أطول، ولذا أضأت كشافي المقدمة الأخضر والأحمر برهة ثم أطفأتهما، ثم أدرت

المركب وجعلت مقدمته تجاه البحر وانتظرت، وأبقيت الآلات دائرة، وبدأت الأمواج تعلو قليلًا، وقلت لإدي بعد أن ناولته جرعة من الخمر: تعال هنا إلى المؤخرة.

فهمس لي: هل تسحب المزلاج بإبهامك أولًا؟

كان يجلس الآن أمام عجلة القيادة، فذهبت إلى هناك وفتحت البابين لاستقبال الشحنة القادمة وقلت:

- أجل.. بالضبط.

- حسنًا.. أيها الصبي.

كان من المؤكد أن للشراب تأثيرًا مدهشًا وسريعًا عليه، ورقدنا هناك، وكان في استطاعتي رؤية أضواء منزل مندوب الحكومة خلال الشجيرات، ثم رأيت الضوءين، وتحرك أحدهما حركة دائرية، وحينئذ، وبعد برهة قصيرة، رأيت قاربًا يخرج من الكهف متجهًا إلينا وفيه رجل يجدف، وعرفت هذا من الطريقة التي كان جسده يندفع بها إلى الأمام وإلى الخلف، كان مجدافه ضخمًا، وسررت، فما داموا يستعملون المجداف فمعنى ذلك أنه لن يكون هناك سوى رجل واحد، وجاءوا إلينا وقال مستر سنج:

- طاب مساؤك يا كابتن..

فقلت له: تعال إلى المؤخرة واجعل قاربك بالعرض.

وقال شيئًا للصبي الذي كان يجدف، ولكنه لم يستطع أن يجدف

للخلف، وهكذا أمسكت أنا بمقدمة القارب ودفعته للخلف، كان بالزورق ثمانية رجال، ستة من الصينيين، ومستر سنج، والصبي الذي يجدف، وبينما كنت أجذب القارب إلى المؤخرة، كنت أتوقع أن أتلقى ضربة على أم رأسي، ولكن لم يحدث شيء، وفردت جسدي وتركت مستر سنج يمسك بمؤخرة مركبي، ثم قلت:

- دعنا نرى شكل العملة.

فناولني رزمة، أخذتها إلى حيث كان «إدي» واقفًا بجوار عجلة القيادة، وأضاء المصباح الصغير، وفحصت النقود جيدًا، فبدت لي سليمة، فأطفأت النور بينما كان «إدي» يرتعد، فقلت له:

- صب لنفسك جرعة..

ورأيته يتناول الزجاجة ويفتحها.. وعدت ثانية إلى مؤخرة المركب وقلت:

- حسنًا.. دع ستة منهم يصعدوا.

كان مستر سنج، والصبي الكوبي الذي يجدف، يحافظان على ثبات الزورق حتى لا يرتطم بشيء.

وسمعت مستر سنج يقول شيئًا بالصينية، وبدأ كل الصينيين الذين كانوا في القارب يصعدون إلى مؤخرة المركب، فقلت:

- واحدًا، واحدًا...

فقال شيئًا مرة أخرى، وهكذا صعد الصينيون الستة واحدًا وراء

الآخر، كانوا جميعًا متساويين في الطول و الحجم، وقلت لإدي: أرهم الطريق.

فقال «إدي»: هذا الطريق من فضلكم يا سادة..

وعلمت أنه تناول جرعة كبيرة، وقلت له بعد أن دخلوا جميعهم الكابينة:

- أغلق الكابينة بالمفتاح.

فقال «إدي»: أجل يا سيدي.

وقال مستر سنج: سأعود بالباقين.

قلت: حسنًا..

ودفعت القارب، وبدأ الصبي الذي معه يجدف مبتعدًا، وقلت لإدي:

- اسمع.. دع تلك الزجاجة.. أنت شجاع الآن بما فيه الكفاية.

فقال «إدي»: حسنًا أيها الرئيس..

- ماذا حدث لك؟

قال «إدي» هذا هو العمل الذي أحبه، هل قلت إنه يكفي أن تسحب المزلاج إلى الخلف بإبهامك؟

فقلت: أنت أيها السكير القذر، أعطني جرعة من تلك الزجاجة.

قال «إدي» لقد ذهبت كلها، آسف أيها الرئيس.

- أصغِ إليَّ.. إن ما علينا عمله الآن هو أن تراقبه حين يناولني النقود، ثم تندفع بالمركب إلى الأمام.

فقال إدي: حسنًا أيها الرئيس..

ومددت يدي إلى أعلى، وتناولت الزجاجة الأخرى وفتحتها، ثم تناولت جرة كبيرة وعدت إلى مؤخرة المركب، بعد أن أغلقت الزجاجة وأخفيتها بين برميلي ماء، وقلت لإدي: ها هو ذا المستر سنج قادم.

فقال إدي: أجل يا سيدي.

واتجه القارب ذو المجدافين ناحيتنا، ثم قاده الصبي إلى مؤخرة المركب، وقلت لمستر سنج:

- دعهم يصعدوا واحدًا وراء الآخر..

وصعد ستة صينيين آخرون إلى مؤخرة المركب، وقلت لإدي:

- افتح الباب ودلهم على الطريق.

فقال «إدي»: أجل يا سيدى..

- أغلق الكابينة بالمفتاح...

- أجل يا سيدي..

ورأيته بعدئذ قد وقف أمام عجلة القيادة.. فقلت:

- حسنًا يا مستر سنج، دعنا نر باقي النقود.

ووضع يده في جيبه ومد النقود إليَّ.. فمددت يدي وجذبته من معصمه والنقود في يده، وبينما كان يندفع تجاه مؤخرة المركب أطبقت على عنقه بيدي الأخرى، وشعرت بالمركب يبدأ في الحركة ثم يتخذ طريقه، بينما كنت أنا مشغولًا بمستر سنج، ولكنني استطعت أن ألمح الصبي الكوبي يقف في القارب ممسكًا بالمجداف، بينما أخذنا نبتعد رغم كل الانتفاضات التي كانت تصدر من مستر سنج، كان ينتفض ويتأرجح أسوأ من سمكة دولفين ضخمة.

وأمسكت بذراعه... لويتها خلف ظهره، وضغطت عليها. ويبدو أن الضغط كان أشد مما ينبغي لأني أحسست بذراعه تتحطم، وصدر من الرجل ضوضاء سخيفة، واندفع إلى الأمام، وبينما أنا أقبض على رقبته عضني في كتفي، فأمسكته من رقبته بكلتا يديّ، وضغطت عليه فركع على ركبتيه، ووضعت إبهامي على حنجرته ولويت الرقبة كلها إلى الخلف حتى تحطمت.

ظللت ممسكًا به لحظة، ثم ألقيت به عند مؤخرة المركب، ورقد هناك، ووجهه إلى أعلى، ساكنًا، في ملابسه الأنيقة، وقدماه تتدليان في القمرة، وتركته، والتقطت النقود من أرض القمرة، وأضأت النور الصغير ثم عددتها، ثم أمسكت عجلة القيادة وطلبت من إدي أن يبحث في أسفل عن بضع قطع من الحديد مما نستعمله كهلب في المياه العميقة، فقال: لا أستطيع أن أجد شيئًا، كان يخشى النزول إلى حيث كان يرقد المستر سنج.

فقلت: أمسك بعجلة القيادة، واستمر في السير بالمركب إلى عرض البحر.

وفى أسفل كان هناك كثير من الحركة والضوضاء، ولكني لم أكن أهتم بهذا حينئذ، ووجدت قطعتين من الحديد الثقيل، وأخذت حبلًا متينًا وثبت قطعتي الحديد بسرعة وإحكام بعقبي مستر سنج، ثم حين أصبحنا على بعد ميلين من الشاطئ دفعته إلى الماء وانزلق بسهولة، ولم أفكر حتى في التنقيب في جيبه فقد كنت أكرهه.

كان قد نزف بعض الدم من أنفه وفمه عند مؤخرة السفينة فتناولت دلوا من الماء وفرشاة ونظفت آثار الدم، ثم قلت لإدي:

- أبطئ سرعته..

فقال إدي: وماذا لو طفا؟

قلت: لقد ألقيت به إلى عمق حوالي سبعمائة فرسخ، وسيهبط كل تلك المسافة الطويلة، وهو لن يطفو إلا حين ترفعه الغازات التي تنتج عن تعفنه، وحتى ذلك الوقت فسيكون تحت رحمة التيارات والأسماك.. ليس لك أن تنشغل بشأن مستر سنج.

وسألني إدي: ماذا كنت تحمل ضده؟

قلت: لا شيء، إنه كان أسهل من تعاملت معهم على وجه الإطلاق، وكنت أعتقد طوال الوقت أن في الأمر خدعة.

- لماذا قتلته إذن؟

قلت له: لكي أمنع قتل اثني عشر صينيًّا آخرين.

قال: هاري.. عليك أن تعطيني جرعة، لأنني بدأت أحس بالرعدة قادمة. وأن رؤية رأسه المتأرجح بهذا الشكل تؤلمني..

وهكذا أعطيته جرعة، فسألني إدي:

- وماذا بشأن الصينيين؟

فقلت له: أريد أن أتخلص منهم بأسرع ما يمكن، قبل أن يملأوا الكابينة برائحتهم.

- وأين ستنزلهم؟

- سنلقي بهم على الشاطئ.

- هل ستقود المركب إلى هناك؟

- بالتأكيد.. قده ببطء.

وسرنا ببطء حتى رأيت الشاطئ يتلألأ، كان شاطئًا يمتلئ قاعه بالرمال والمنحدرات، فقلت له:

- انهض واذهب إلى المقدمة، وبلغني بعمق الماء.

وذهب هناك وأخذ يتحسس الماء بعمود طويل من الخشب، ويشير إليَّ بالتقدم، ثم عاد وأشار إليَّ بالوقوف، فذهبت إلى مؤخرة المركب.

وقال: عمق الماء حوالى خمسة أقدام..

قلت: علينا أن نلقي الهلب، وإذا حدث شيء مفاجئ، فلن تستطيع رفعه وسيمكن حينئذٍ قطع حبله أو التخلص منه.

وأخذ إدي يرخي الحبل، حتى لم يعد الهلب يُسحب، وقال:

- أنت تعلم أن القاع رملي.

- كم ارتفاع الماء عند المؤخرة؟

- لا يزيد على خمسة أقدام.

قلت: تناول البندقية وكن حذرًا.

فقال وهو في منتهى العصبية: ناولني جرعة.

فناولته جرعة، ثم أخذت البندقية سريعة الطلقات، وفتحت باب الكابينة وقلت: اخرجوا.

ولم يحدث شيء...

ثم أطل أحد الصينيين برأسه، ورأى إدي ممسكًا بالبندقية، فعاد مسرعًا إلى الخلف، وقلت:

- اخرجوا.. لن يؤذيكم أحد.

لم يحدث شيء سوى خليط من الكلام بالصينية ، فقال إدي:

- أنتم هناك ، اخرجوا.

كنت أعلم أنه شرب الزجاجة كلها، وقلت له:

- ألقِ تلك الزجاجة بعيدًا، وإلا قذفت بك من فوق المركب.

ثم قلت لهم: اخرجوا وإلا أطلقت الرصاص عليكم.

ورأيت واحدًا منهم ينظر من ركن الباب، ويبدو أنه رأى الشاطئ قريبًا لأنه بدأ يثرثر، فقلت:

- اخرجوا وإلا أطلقت الرصاص..

وهكذا خرجوا.. كان الأمر يبدو مخجلًا جدًّا لو أن أحدًا قتل كل تلك الحفنة من الصينيين، هذا بالإضافة إلى أن قتلهم كان سيسبب متاعب كثيرة، وكانوا يخرجون وهم خائفون..

صحيح أنهم لم يكونوا يحملون بنادق، ولكنهم كانوا اثني عشر شخصًا، وتقهقرت إلى مؤخرة المركب وأنا ممسك بالبندقية سريعة الطلقات ثم قلت: اقفزوا من المركب، إن الماء لن يصل إلى رؤوسكم..

لم يتحرك أحد..

- اذهبوا..

لم يتحرك أحد..

فقال إدى: أنتم أيها الصفر آكلو الفئران، انزلوا من المركب.

قلت له: أغلق فمك المخمور.

وقال أحد الصينيين: لن نضطر للسباحة.

قلت: لستم في حاجة إلى السباحة، الماء ليس عميقًا.

وقال إدي: هيا، انزلوا من المركب.

وقلت: تعال هنا إلى المؤخرة، أمسك بندقيتك بيد، وأمسك عمود القياس باليد الأخرى وأرهم عمق الماء.

وأراهم عمق الماء حين أخرج العمود يقطر ماء، وقال الذي سألني من قبل:

- لن نكون في حاجة إلى السباحة؟

- كلّا..

- حقًّا..؟

- أجل..

- وأين نحن؟

- في كوبا..

فقال: أنت أيها المحتال القذر.

ثم ذهب إلى حافة المركب، وتدلى منها، ترك نفسه يسقط في الماء، وغاص رأسه في الماء، ولكنه طفا مرة أخرى وصار ذقنه فوق مستوى الماء فقال:

- أنت أيها المحتال اللعين، أيها المحتال.

كان مجنونًا وشجاعًا جدًّا، وقال شيئًا بالصينية فبدأ الآخرون ينزلون إلى الماء، وقلت لإدي:

- حسنًا.. ارفع الهلب.

وحين انطلقنا بالمركب إلى عرض البحر، كان القمر قد بدأ يبزغ وكنا نستطيع رؤية الصينيين ورؤوسهم فقط فوق سطح الماء، وهم يسيرون إلى الشاطئ، وأمامهم الشاطئ وأشجاره.

وانطلقنا بالمركب إلى الأمام ورأيت خلفي الشاطئ بجباله، فيممت شطر كي وست، وقلت لإدي:

- والآن تستطيع أن تنام قليلًا، كلا، انتظر، اذهب إلى أسفل وافتح كل النوافذ لتخرج الرائحة، وأحضر إليَّ زجاجة صبغة اليود.

فقال بعد أن أحضرها: ماذا هناك؟

- لقد جرحت إصبعي.

- أتريد أن أمسك الدفة؟

قلت له: نم بعض الوقت، وسأوقظك فيما بعد.

واستلقى على الأريكة المثبتة في القمرة فوق خزان الوقود، وبعد برهة قصيرة كان مستغرقًا في النوم.

* * *

الفصل الخامس

هاري يعود إلى البيت

سندت عجلة القيادة بركبتي، وفتحت قميصي، ورأيت المكان الذي عضني فيه مستر سنج.. كانت مجرد عضة بسيطة، فوضعت عليها صبغة اليود.. وجلست أتولى القيادة وأتساءل إذا كانت عضة رجل صيني سامة، بينما أنا مصغ لصوت انطلاق المركب الجميل، وهو ينزلق في نعومة فوق صفحة الماء..كلا، إن تلك العضة غير سامة، فرجل مثل مستر سنج.. من المؤكد أنه لم يكن رجل أعمال متمرنًا، أو ربما كان، وربما كان يثق بي ولكني لم أكن أطيقه.

والآن، فقد انتهت العملية ببساطة، إلا فيما يتعلق بإدي.. فهو سكير وسيتكلم حينما يسكر، جلست هناك أفكر، كان يرقد كالميت بينما أنا متمالك لكل قواي، حينما رأيته أول مرة على المركب فكرت

في التخلص منه.. ولكن الآن بعد أن انتهى كل شيء على ما يرام، لم يطاوعني قلبي، ورأيت أنه ليس من الحكمة عمل شيء الآن قد أندم عليه فيما بعد، ثم أخذت أفكر في أنه ليس مقيدًا في قائمة البحارة، ولذلك فإنني سأدفع غرامة لنقله دون ترخيص.

كان أمامي وقت طويل للتفكير، وتركت المركب يسير في طريقه المرسوم، وأنا أتناول بين الفينة والفينة جرعة من الزجاجة التي أحضرها إدي، ولم يكن فيها الكثير.. وحين فرغت فتحت الزجاجة الوحيدة التي كانت لديَّ، وبدأت أشعر بمتعة القيادة وأحسست بأن الليلة جميلة على الرغم مما صادفني فيها من أحداث!

استيقظ إدى مع إشراق الصباح، وقال إنه يشعر بأنه ليس على ما يرام، فقلت له:

- أمسك بعجلة القيادة دقيقة.. أريد أن ألقي نظرة.

وذهبت إلى المؤخرة، وألقيت عليها بعض الماء.. كانت نظيفة تمامًا، وأفرغت البنادق من الرصاص وأعدتها إلى مكانها، ولكني احتفظت بالمسدس في حزامي، وكانت الرائحة بأسفل المركب عادية، وقد تسرب بعض الماء من المنافذ، فأغلقتها.. لن يستطيع أي ضابط حرس سواحل في العالم، أن يشم رائحة الصينيين الآن!

ورأيت أوراق الترخيص بالرحلة معلقة تحت إطار رخصة المركب، حيث كنت قد احتفظت بها.. فتناولت الأوراق لألقي عليها نظرة، ثم صعدت إلى غرفة القيادة وقلت له: اسمع.. كيف تمكنت

من قيد اسمك في قائمة البحارة؟

– لقد قابلت وكيل الميناء حين كنت ذاهبًا إلى القنصلية وقلت له إنني سأرحل معك.

فقلت: إن الله يرعى السكارى..

ثم أخذت مسدسى عيار ٣٨ ونزلت فأودعته مكانه، وأعددت بعض القهوة بأسفل، ثم صعدت وتناولت عجلة القيادة، وقلت له:

– هناك قهوة بأسفل..

– أخي.. إن القهوة لا تفيدني..

لم يكن المرء يملك إلا الرثاء له، فقد كان فعلًا في حالة سيئة.. وفي حوالي التاسعة رأينا أضواء ساندكي على مسافة قصيرة وقلت له: سنصل هناك في خلال ساعتين من الآن، وسأعطيك الأربعة دولارات أجرك اليومي، تمامًا كما لو كان مستر جونسون قد دفع نقوده.

فسألني: ما مقدار المبلغ الذي حصلت عليه ليلة الأمس؟

قلت له: ستمائة دولار فقط.

لم أكن أدري هل صدقني أم لا..

–ألن أشارك في المبلغ؟

فقلت له: إن نصيبك هو ما قلت لك عليه الآن، وإذا حدث أن فتحت فمك بشأن الليلة الماضية، فسيبلغني الأمر وسأجهز عليك.

- أنت تعلم يا هاري أنني لست ثرثارًا..

- أنت سكير.. ولكنك إذا تكلمت، مهما كانت كمية الخمر التي شربتها، فإنني أعدك..

فقال: إنني رجل ممتاز، ولا ينبغي أن تكلمني بهذه اللهجة..

قلت: لن ينقذك أحد مني.

ولكنني لم أكن أبالي بالأمر، إذ من سيصدقه؟ لن يستطيع مستر سنج الآن أن يشكو.. وكذلك الصينيون ولا الصبي الذي أقلهم، وسيتكلم إدي عن هذه الليلة إن عاجلًا أو آجلًا، ولكن من ذا الذي يصدق مخمورًا؟ من الذي يستطيع إثبات أي شيء؟ ومن حسن الحظ أنني لم أرتكب معه أية حماقة، فإن اسمه كان ضمن قائمة البحارة.. إن حظه وافر.

وأخيرًا اقتربنا من الشاطئ، وبدأت المباني تتضح رويدًا رويدًا. كنت أعلم أننا على مسافة أربعين دقيقة فقط، وبدأت أشعر بالسعادة لعودتي.. كان معى رصيد طيب يكفينى فترة الصيف، قلت لإدي: ما رأيك في شراب يا إدي؟

- آه.. هاري.. كنت أعلم دائمًا أنك صديقي الحميم.

وفى هذا الليلة، جلست في غرفة الجلوس أدخن سيجارًا وأشرب ويسكي مخففا بالماء، وأستمع إلى الراديو، وكانت بناتي الثلاث قد ذهبن إلى المسرح، وأحسست بالنعاس يستولي عليَّ ولكني سمعت

من يطرق بابنا، ونهضت زوجتي ماري من مقعدها وذهبت ثم عادت لتقول:

- إنه ذلك السكير «إدي مارشال» يقول إنه لا بد أن يراك.

فقلت لها: قولي له أن يخرج فورًا قبل أن أطرده.

وعادت إلى مقعدها مرة أخرى، ونظرتُ من النافذة وأنا جالس في مكاني، فرأيت إدى يسير في الطريق تحت ضوء المصباح، وبصحبته سكير آخر التقطه من الطريق، وكلاهما يترنح.. بينما أخذ مصباح الشارع يعكس ظليهما المترنحين، وقالت ماري:

- مساكين أولئك السكارى الملاعين.

- إنه سكير محظوظ.

قالت ماري: لا يوجد سكارى محظوظون، هل تعرف هذا يا هاري؟

فقلت: نعم.. أعتقد أنه لا يوجد.

* * *

الفصل السادس

شحنة من الخمر

كان الرجلان قد أتما عبورهما أثناء الليل، خلال ريح قوية كانت تهب من الشمال الغربي، وحين أشرقت الشمس أبصر ناقلة زيت تأتي من عند الخليج، ثم تقف شامخة بيضاء تحت أشعة الشمس في ذلك الجو البارد، وتبدو كما لو كانت بناء عاليًا يرتفع من البحر فقال للزنجي: أين نحن الآن؟

ورفع الزنجي جسده لينظر، ثم قال:

- لا أعرف مكانًا مثل هذا على شاطئ ميامي.

فقال للزنجي: «أنت تعلم جيدًا أن المركب لم يكن ليتجه بنا إلى ميامي».

- كل ما أقوله أنه لا يوجد أبنية مثل تلك بشواطئ فلوريدا.

- لقد كنا متجهين بالمركب إلى ساندكي.

- كان ينبغي أن نراها الآن إذن، هي أو الشواطئ الأمريكية. وتبين له بعد برهة أنها ناقلة زيت وليست أبنية، ثم بعد أقل من ساعة رأى منارة ساندكي أمامه مباشرة، رفيعة بنية، وكأنها ترتفع من البحر، وقال للزنجي: كان ينبغي أن تثق بقيادتي.

فقال الزنجي: إنني أثق، ولكن المشاكل التي تعرضنا لها خلال هذه الرحلة، أفقدتني كل ثقة.

- كيف حال ساقك؟

- إنها تؤلمني طوال الوقت.

فقال الرجل: إن الأمر بسيط، اعتن بنظافتها وضمادها وستلتئم وحدها.

كان يقود المركب تجاه الغرب الآن، ليلتجئ إلى الأشجار الكثيفة القريبة من «ومان كي» حيث سيبقى طوال النهار دون أن يراه أحد، وحيث سيأتي القارب لملاقاتهما.

وقال للزنجي: ستتحسن حالتك.

فقال الزنجي: لا أدري، فإن إصابتي خطيرة.

فرد عليه: سأضمدك جيدًا حين نصل إلى ذلك المكان.. إن إصابتك ليست خطرة، دع القلق جانبًا.

قال: لقد أطلقوا عليَّ الرصاص.. ولم يسبق أن أطلق عليَّ أحد

الرصاص من قبل، وإطلاق الرصاص في حد ذاته شيء بشع.

واستمر الزنجي يتذمر هكذا، وهو لا يستطيع منع نفسه من فك ضماده لينظر إلى إصابته، وقال له الرجل الممسك بعجلة القيادة: دعها وشأنها.. فرقد الزنجي على أرض القمرة، حيث كانت هناك أكياس من القماش السميك مملوءة بزجاجات الخمر وملقاة في كل مكان، وكان قد أفرد لنفسه بينها مكانًا يرقد فيه.. وكلما كان يتحرك كان يسمع صوت تحطيم زجاج في تلك الأكياس، ثم تنبعث رائحة الخمر، وكان الشراب قد انسكب ولوث كل شيء. كان الرجل يقود المركب الآن متجها إلى «ومان كي» وكان حينئذ يراها جيدًا..

وقال الزنجي: إنني أتألم.. ألمى يزداد كلما مر الوقت.

فرد الرجل: آسف يا ويسلي، ولكني لا أستطيع التخلي عن عجلة القيادة.

فقال الزنجي: أنت لا تعامل رجلًا بأفضل مما تعامل كلبًا.

والواقع أن الرجل كان آسفًا من أجله، وقال الرجل للزنجي:

- سأريحك يا ويسلي، ولكن ارقد الآن ساكنًا.

فقال الزنجي: أنت لا تأبه إطلاقًا بما يحدث لرجل ، أنت لا تكاد تكون بشرًا.

فرد الرجل: سأضمدك حالًا، ولكن ارقد الآن ساكنًا.

قال الزنجي: إنك لن تضمدني.

ولم يتفوه الرجل الذي كان اسمه هاري مورجان بشيء؛ لأنه كان يحب الزنجي، ولم يكن هناك ما يستطيع عمله الآن سوى ضربه ولكنه لم يكن يقدر على ضربه، واستمر الزنجي يتكلم:

- لماذا لم نتوقف حينما بدأوا إطلاق الرصاص؟

ولم يجب الرجل..

- ألا تساوى حياة رجل أكثر من حمل من الخمور؟

كان الرجل متفرغًا بكليته لقيادة المركب.. وقال الزنجي:

- كان علينا أن نقف ونتركهم يأخذون الخمر.

فقال هاري مورجان: كلا.. كانوا سيأخذون الخمر والمركب، ونذهب إلى السجن فضلًا عن ذلك.

فرد الزنجي: أنا لا يهمني السجن.. ولكني لم أرغب إطلاقًا في أن أصاب بالرصاص.

وكان الزنجي قد بدأ يثير أعصاب الرجل، وبدأ الرجل، يتململ من سماع صوته وهو يتحدث، فسأله:

- من منا بحق الجحيم الذي إصابته خطيرة؟.. أنت أم أنا؟

فأجاب الزنجي: حقًّا إن إصابتك أخطر، ولكني لم أصب بالرصاص من قبل، إنك لا تدفع لي أجري ليُطلق عليَّ الرصاص!

ورد الرجل: تقبل الأمر ببساطة يا ويسلي..

وكانا قد بدأا يصلان الآن إلى «ومان كي» وأصبحا داخل المياه الضحلة، ووجّه «هاري مورجان» المركب إلى القناة، بينما أصبحت الرؤية صعبة بسبب انعكاس ضوء الشمس على صفحة الماء، وكان الزنجي على وشك أن يفقد صوابه، فقد كان يتكلم طوال الوقت وسأل:

– لم يهربون الخمور الآن؟.. لقد أُلْغِيَ قانون حظر الخمر.. لم يضطروننا لسلوك مثل هذة الطرق الملتوية؟.. لماذا لا ينقلون الخمور بالطريقة العادية؟

وكان الرجل الذي يمسك بعجلة القيادة منتبهًا بكليته إلى خط سيره في القنال.. واستمر الزنجي يقول: لماذا لا يكون الناس أمناء ومهذبين، ويعيشون حياة آمنة مهذبة!

ورأى الرجل المكان الذي تندفع فيه موجة هادئة إلى الشاطئ فأدار وجهة المركب، وجعله يدور دورة كاملة، وهو يلف عجلة القيادة وبذراع واحدة، وحينئذ انفرجت القناة أمامه، فسار بالمركب ببطء تجاه الأشجار الكثيفة، ثم سار إلى مؤخرة المركب، وأوقف الآلات، وقال:

– في استطاعتي أن أُلقي الهلب، ولكني لن أستطيع رفعه.

فقال الزنجي: وأنا لا أستطيع حتى مجرد الحركة.

فرد عليه الرجل: من المؤكد أنك في حالة سيئة.

ومر عليه وقت عصيب، وهو يوقف المركب ثم يرفع الهلب الصغير ويلقيه، ولكنه قذفه أبعد من المسافة المطلوبة فسحب الكثير من الحبال، مما جعل المركب يندفع ناحية الأشجار الكثيفة لدرجة أن أغصانها دخلت إلى القمرة، وحينئذ عاد الرجل إلى القمرة.. وخُيِّل إليه أن مركبه قد بلغ حدًّا يرثى له من الفوضى.

لقد قضى الليل بطوله، بعد أن ضمد جرح الزنجي، وبعد أن ربط له الزنجي ذراعه، وهو يرقب البوصلة ويقود المركب، وحين طلع النهار رأى الزنجي راقدًا هناك بين الأكياس في القمرة، ولكنه كان حينئذ مشغولًا بمراقبة البحر والبوصلة، والبحث عن منارة ساندكي، وبهذا لم يتمكن من إلقاء نظرة فاحصة على الأشياء حوله على ظهر المركب.. وكان الحال في منتهى السوء.

كان الزنجي راقدًا وسط شحنة الخمور وساقه مرفوعة إلى أعلى، وكانت هناك ثمانية ثقوب أحدثتها الرصاصات خلال جدران القمرة، كان زجاج غرفة القيادة الأمامي محطمًا.. لم يكن يعرف عدد الزجاجات التي تحطمت، ولم يكن يدري إذا كان الزنجي ينزف، إنه شخصيًّا كان ينزف، ولكن أسوا ما في الأمر كانت رائحة الخمر التي أحس بها في تلك اللحظة تملأ خياشيمه، كان كل شيء غارقًا في الخمر، ورغم أن المركب كان يلوذ الآن في هدوء بالشجر الكثيف، إلا أنه لم يستطع أن يبعد عن نفسه الإحساس باهتزاز البحر من حوله طوال الليل. وقال هاري مورجان للزنجي:

- سأذهب لأعد قدحًا من القهوة، ثم أعود لأضمدك ثانية.

- لا أريد قهوة.

فقال الرجل: ولكني أنا أريد...

ولكنه حين هبط إلى أسفل شعر بالدوار، فعاد إلى السطح ثانية وقال: أعتقد أنه لم يعد لدينا بن.

- أريد بعض الماء..

- حسنًا..

وأعطى للزنجي كوب ماء من البرميل..

- لماذا كنت تريد الهرب حين بدأوا يطلقون الرصاص؟

-فأجاب الرجل: ولماذا أطلقوا الرصاص؟

قال الزنجي: دعنا الآن من ذلك.. أريد طبيبًا.

- وماذا يستطيع الطبيب أن يفعل لك أكثر مما فعلت؟

- الطبيب سيشفيني..

- سيكون لديك الطبيب الليلة، حين يأتي القارب.

- أنا لا أريد انتظار أي قارب..

فقال الرجل: حسنًا.. سنفرغ هذه الخمور الآن..

وبدأ يفرغ الخمر من القمرة.. كان عملا شاقًّا وهو يؤديه بيد واحدة ،كان كيس الخمر الواحد يزن أربعين رطلًا، ولكنه لم يكد

يفرغ الكثير منها، حتى أحس بالدوار ثانية فجلس في القمرة، ثم رقد.

وقال الزنجي: إنك تنوي قتل نفسك.

كان الرجل يرقد ساكنًا في قاع القمرة، وقد أسند رأسه الى أحد الأكياس.. كانت أغصان الأشجار تتسرب إلى القمرة، وتلقي عليه ظلالًا وهو مستلقٍ، واستطاع أن يسمع الريح تعوي فوق الأشجار، وحين نظر إلى أعلى، إلى السماء الباردة، رأى السحاب الرقيق تدفعه الرياح الشمالية، وقال للزنجي: لن يأتي أحد في مثل تلك الريح، وهم لن يحاولوا البحث عنا، وتلك العاصفة على وشك الهبوب.

وسأله الزنجي: أتظن أنهم سيأتون؟

فقال الرجل: بالتأكيد.. لم لا؟

- إن الريح بدأت تهب بشكل عاصف.

- إنهم سيبحثون عنا..

- لن يفعلوا والطقس بمثل هذا السوء.. لماذا تكذب عليَّ؟

كان الزنجي يتكلم وقد كتم فمه في أحد الأكياس، وقال له الرجل: تقبل الأمور ببساطة يا ويسلي..

واستمر الزنجي في حديثه: الرجل يقول تقبل الأمر ببساطة، تقبل الأمر ببساطة؟ ما الذي أتقبله ببساطة؟.. أن أموت ككلب، لقد أتيت بي إلى هنا، أخرجني من هنا..

وقال الرجل بعطف: تجلد.

فرد الزنجي: لن يأتوا.. إني أعرف أنهم لن يأتوا، إنني أقول لك إنني أشعر بالبرد، ولا أستطيع تحمل هذا الألم والبرد معًا..

- جلس الرجل وهو يحس بالخواء وعدم الاتزان.. وراقبته عينا الزنجي وهو ينهض على ركبة واحدة بينما تدلت ذراعه اليمنى، ثم يأخذ يده اليمنى بيده اليسرى ويضعها بين ركبتيه ثم يشد نفسه إلى أعلى وهو يتعلق بكتلة خشبية فوقه، ويتطلع إلى الزنجي بينما ما زالت يده اليمنى بين فخذيه، كان يفكر في أنه لم يشعر أبدًا من قبل بالألم الحقيقي، وقال: لو احتفظت بيدي مفرودة، وجذبت الأكياس وأنا واقف، فلن يكون الألم شديدًا.

فقال الزنجي: دعني أربطها لك في الخطاف.

فرد الرجل: لا أستطيع أن أثني مرفقي، فقد تجمد بهذا الوضع.

- وماذا نحن فاعلان؟

- نفرغ هذا الشراب.. ألا تستطيع أن تناولني ما هو قريب منك يا ويسلي؟

وحاول الزنجي أن يتحرك ليصل إلى كيس من الأكياس، ولكنه تأوه واستلقى على ظهره.

- هل إصابتك من السوء بهذه الدرجة يا ويسلي؟

فقال الزنجي: أوه، يا إلهي.

- لا تفكر في أنك تحركت، وبهذا لن تؤلمك إصابتك كثيرًا.

فرد الزنجي: إنني مصاب بالرصاص.. ولن أتحرك.. الرجل يريد مني أن أفرغ الخمور، بينما أنا مصاب بالرصاص.

- تجلد..

-لو قلت هذه الكلمة مرة أخرى، فسيصيبني الجنون!

فقال الرجل في هدوء: تجلد..

حينئذ صدر من الزنجي صوت كالعواء، ومد يده إلى سطح المركب، والتقط حجرا مسنًّا، وقال: سأقتلك.. سأمزق قلبك.

فقال الرجل: كلّا.. ليس بحجر المسن.. تجلد يا ويسلي.

وبكى الزنجي وهو يدفن وجهه في أحد الأكياس.. وأخذ الرجل يرفع الأكياس التي تحتوي الخمور ببطء، ويسقطها من حافة القمرة.

* * *

الفصل السابع

زائران غريبان

بينما كان يفرغ الخمر،سمع صوت موتور، وتطلع ورأى قاربًا يتجه ناحيتهم، مارًّا في القناة.. كان قاربًا أبيض، غرفة قيادته وردية، وقال:

- لقد أتى القارب، تعال يا ويسلي.

- لا أستطيع.

فقال الرجل: يمكنني الآن أن أتذكر كل الأحداث التي مرت بنا.

فرد عليه الزنجي: تذكر كما تشاء، أما أنا فلا أستطيع نسيان شيء..

كان يعمل بسرعة في تفريغ الخمور، وأخذ العرق يجري منحدرًا على وجهه، لم يتوقف ليرقب القارب وهو يتقدم في بطء خلال القناة،

بل كان يلتقط أكياس الخمر بذراعه السليمة ويسقطها من فوق الحافة وقال للزنجي:

- تدحرج..

ومد يده إلى الكيس الذي كان تحت رأس الزنجي وطوحه من فوق الحافة، فجلس الزنجي وقال الرجل: «ها هم أولاء» كان القارب قد اقترب جدًّا من المركب، فقال الزنجي:

- إنه الكابتن ويلي، ومعه رفاق..

وفى مؤخرة القارب، جلس رجلان يرتديان فانلات وقبعات من القماش الأبيض، ويجلسان في كراسي الصيد ومعهما رجل عجوز يرتدي قبعة من الفلين، ويقود القارب متجهًا إلى مركب الخمور، وقال العجوز وهو يمر بجوار المركب:

- ماذا تقول يا هاري؟

ولوح الرجل المسمى هاري بذراعه السليمة، ومر القارب بالمركب، بينما نظر الرجلان اللذان يرتديان الفانلات إلى مركب الخمور وهما يتحدثان مع العجوز، ولكن هاري لم يستطع سماع حديثهما، وقال هاري للزنجي:

- سيدور دورة عند فم الخليج، ثم يعود.

ثم نزل إلى أسفل وعاد معه بطانية وقال:

- دعني أغطيك..

– هل لا بد من تغطيتي؟.. إنهم لن يهتموا إلا بهذه الخمور، فماذا سنفعل؟

قال الرجل: إن ويلي يحسن التصرف، سيقول لهم في البلدة إننا هنا، وهذان الرجلان اللذان يصطادان لن يضايقانا، فماذا يهمهما من أمرنا؟

وأحس حينئذ بأنه يرتعد، فجلس على المقعد المواجه لعجلة القيادة وأمسك ذراعه اليمنى بين فخذيه، كانت ركبتاه ترتعدان، ومع الرعدة، كان يحس بالعظم في الجزء الأعلى من ذراعه يطقطق، ففتح ما بين ركبتيه، ورفع ذراعه من بينهما، وتركها مدلاة إلى جانبه، كان لا يزال جالسًا هناك، وذراعه مدلاة حين مر به القارب عائدًا من القناة. كان الرجلان اللذان في مقعدي الصيد يتحدثان.. كانا قد أعدَّا قصبتيهما، وكان أحدهما ينظر إليه من خلال منظار مقرب، كانا بعيدين عنه لدرجة لم يستطع معها سماع حديثهما كما أن حديثهما لم يكن يفيده كثيرًا.

وعلى ظهر القارب المسمى «سوث فلوريدا» والذي كان يذرع قناة «ومان كي» دون توقف لأن الموج كان خطرًا عليه لو ذهب ناحية المركب... على ظهر هذا القارب، جلس الكابتن ويلي أدامز يفكر: إذن فقد تمكن هاري من العبور في الليلة الماضية.. إنه ولد شجاع.. لا بد أنه عاصر العاصفة كلها..

ولكن ما الذي كسر زجاج غرفة قيادته؟ فلتلعني السماء لو

حاولت العبور في ليلة كليلة الأمس، ولتلعني أيضًا لو حاولت تهريب خمور من كوبا، ولم ينتبه إلا أخيرًا، إلى أن أحد الرجلين الجالسين في مقعدي الصيد يكلمه فسأله:

- ماذا تقول يا كابتن؟

- أي مركب ذلك الذي هناك؟

- ذلك المركب؟

- أجل.. ذلك المركب الذي هناك.

- أوه.. إنه مركب من كي وست.

- لقد كان سؤالي من هو صاحب هذا المركب؟

- هذا ما لا أعرفه يا كابتن..

- هل صاحبه صياد سمك؟

- حسنًا.. بعضهم يقول إنه كذلك.

- ماذا تعنى؟

- إنه يقوم بأشياء صغيرة من كل نوع.

- ولا تعرف اسمه؟

- كلّا يا سيدي..

- لقد ناديته بهاري.

- لم يحدث..

- لقد سمعتك تناديه هاري..

ونظر كابتن ويلي أدامز نظرة فاحصة إلى الرجل الذي كان يحدثه فرأى وجهًا برزت عظام وجناته، بشفتين رقيقتين، كان وجها وقحًا بعينين رماديتين غائرتين، وفم مليء بالازدراء، يتطلع إليه من تحت قبعة من القماش الأبيض، وقال كابتن ويلي:

- ربما ناديته بهذا خطأ.

وقال الرجل الثاني وهو يناول المنظار لزميله: تستطيع أن ترى أن الرجل جريح يا دكتور.

فأجابه الرجل قائلًا:

- هل تستطيع رؤية هذا دون منظار.. من هو ذلك الرجل؟

فأجاب كابتن ويلي: لا أعرف..

فقال الرجل ذو الفم المليء بالازدراء: حسنًا.. ستعرف. اكتب رقم المركب.

- لقد كتبته يا دكتور.

فقال الدكتور: سنذهب إلى هناك ونلقي نظرة.

فسأله كابتن ويلي: هل أنت طبيب؟

فرد عليه الرجل ذو العينين الرماديتين: لست طبيبًا بشريًّا..

- لن أذهب إلى هناك ما دمت لست طبيبًا بشريًّا.

- لم لا؟

- لو كان يريدنا لأشار إلينا.. وإذا لم يكن يرغب فينا فليس الأمر من شأننا، فهنا كل شخص يهتم بأموره الشخصية فحسب.

- حسنًا.. فلنفترض أنك تهتم بأمورك إذن.. والآن خذنا إلى ذلك المركب.

ولكن الكابتن ويلي استمر في طريقه مصعدًا مع القناة، وقاربه يحدث صوتًا منتظمًا..

- ألم تسمعني؟

- بلى يا سيدي.

- لم إذن لم تطع أوامري؟

وسأله الكابتن ويلي: من تظن نفسك بحق الجحيم؟

- ليس هذا هو المهم.. افعل ما آمرك به.

- من تظن نفسك؟

- حسنًا.. سأزيدك علمًا.. إنني واحد من أهم ثلاثة في الولايات المتحدة اليوم.

- وماذا تفعل إذن في كي وست، بحق جهنم؟

ومال الرجل الآخر إلى الأمام، وقال في انفعال: إنه فريدريك هاريسون.

فقال الكابتن ويلي: لم أسمع عنه أبدًا.

ورد فريدريك هاريسون: حسنًا.. سوف تسمع.. وكذلك سوف يسمع كل واحد يعيش في ذلك المرفأ الصغير القذر، حين أضطر لإزالته تمامًا.

ورد الكابتن ويلي: إنك زميل لطيف.. ولكن كيف حدث أن صرت مهمًّا هكذا؟

فقال الرجل الآخر: إنه واحد من أعظم رجال الحكومة.

وأجاب الكابتن ويلي: حثالة.. إذا كان بمثل هذه المكانة، فماذا يفعل هنا في كي وست؟

وأجاب السكرتير مفسرًا: إنه هنا في إجازة، وسوف يصير الحاكم العام لـــ...

فقال فريدرك هاريسون: في هذا الكفاية يا ويليس، ثم ابتسم وقال: والآن هل تأخذنا إلى ذلك المركب؟

- كلا يا سيدي..

- اسمع أيها الصياد الغبي.. سوف أحيل حياتك إلى بؤس..

فقال كابتن ويلي: أجل..

- أنت لا تعلم من أكون.

فقال كابتن ويلي: لا يعنيني من تكون.

- أليس هذا الرجل مهرب خمور؟

- ماذا تظن أنت؟

- ربما كانت هناك جائزة لمن يقبض عليه.

- أشك في هذا..

- إنه معتدٍ على القانون.

- لديه عائلة، ويتحتم عليه أن يأكل ويطعمها.. هل تريد أن يعمل في خدمة الحكومة بستة دولارات ونصف دولار في الأسبوع؟

- إنه جريح.. وهذا يعني أنه كان يواجه متاعب.

- ربما أطلق الرصاص على نفسه من قبيل المزاح.

- يمكنك أن تحتفظ بسخريتك.. ستذهب إلى المركب، وسنأخذ ذلك الرجل وذلك المركب لنضعهما تحت الحراسة.

- ماذا؟

- سنأخذهما إلى كي وست.

- هل أنت ضابط؟

فقال السكرتير: لقد أخبرتك عن شخصيته.

فقال كابتن ويلي: حسنًا...

وضغط بعنف على مفتاح البنزين، وأدار القارب، وهو يقترب جدًّا من حافة القناة لدرجة أن المحرك قذف سحابة دائرية من الطمي،

ثم قطع القناة متجهًا إلى حيث كان المركب راسيًا بجوار الشجر الكثيف، وسأل فريدريك هاريسون الكابتن ويلي: هل لديك بندقية على ظهر القارب؟

- كلًا يا سيدي..

كان الرجلان اللذان يرتديان الفانلات، قد وقفا الآن يرقبان مركب الخمور..

وقال السكرتير:

- هذه متعة أحسن من متعة صيد السمك.. أليس كذلك يا دكتور؟

وأجاب فريدريك هاريسون: إن صيد السمك تفاهة.. ماذا تفعل بسمكة ذات شراع إذا اصطدتها؟ إنها لا تؤكل.. أما هذا فهو عمل ممتع، إنني سعيد لأنني أول من يرى الحادث عقب وقوعه مباشرة، وهذا الرجل الجريح لن يستطيع الهرب، رغم أنه يكون في منتهى القسوة وهو في عرض البحر، نحن نعرف مركبه.

وقال السكرتير بإعجاب: هأنتذا ستقتنصه بيديك المجردتين.

فقال فريدريك هاريسون: ودون أن يكون معي سلاح أيضًا.

ورد السكرتير: كانوا يقولون إنه من المستحيل القبض عليهم، دون رجال المباحث، وقد اتضح أن هذا هراء.

فقال فريدريك هاريسون: إن إدجار هوفر يبالغ في دعايته وأعتقد أننا أعطيناه فرصًا كافية.

ثم قال الكابتن ويلي: قف بجوار المركب.

وأوقف كابتن ويلي موتور قاربه، ثم صاح بمن في المركب:

- هيا، اخفضوا رؤوسكم.

وقال هاريسون غاضبًا: ماذا تقول؟

- اصمت.

ثم نادى على من في المركب قائلًا: اسمع.. اتجه إلى البلدة وتجلد، لا تهتم بالمركب، فسيستولون عليه، اقذف بحمولتك واذهب إلى البلدة..

معي هنا فتى من واشنطن، يقول إنه أهم من رئيس الجمهورية، وهو يريد إلقاء القبض عليك، فهو يعتقد أنك مهرب خمور، لقد أخذ رقم المركب.. أنا لم أرك مطلقًا، ولهذا فلا أعرف من تكون، ولا أستطيع التعرف على شخصيتك.

وافترق القارب عن المركب.. واستمر الكابتن ويلي يصيح: أنا لا أعرف المكان الذي رأيتك فيه، ولا أدري كيف أستطيع العودة إلى هنا.

وارتفعت صيحة من مركب تهريب الخمور تقول: حسنًا..

وصاح كابتن ويلي: سأظل محتفظًا بهذا الرجل المهم ليصطاد السمك حتى حلول الظلام.

- حسنًا..

وصاح كابتن ويلي، وهو يكاد يختفي: إنه يحب صيد السمك، ولكن هذا الرجل يقول إنك لا تستطيع أكله.

وجاء صوت هاري: شكرًا يا أخي.

وسأله فريدريك هاريسون وقد تضرج وجهه رغم أن فضوله لم ينقص:

-هل هذا الشاب أخوك؟

فقال كابتن ويلي: كلا يا سيدي، ولكن كل من يركب البحر ينادى الآخر بأخي.

وقال فريدريك هاريسون، دون اقتناع كبير: سوف نذهب إلى كي وست.

فرد كابتن ويلي: كلا يا سيدي.. لقد استأجرتما قاربي أيها السيدان لمدة يوم كامل، وينبغي ليّ أن أقدم لكما ما يساوي نقودكما.. لقد سميتني غبيًّا، ولكني سأجعلك تستمتع بإيجار القارب يومًا كاملًا.

فقال هاريسون: خذنا إلى كي وست.

فأجاب كابتن ويلي: أجل يا سيدي.. فيما بعد.. ولكن هل تعلم أننا نبيع السمك ذا الشراع في سوق هافانا بسعر عشرة سنتات للرطل؟

- اسكت..

- كنت أعتقد أنك ستهتم بهذه الأشياء بصفتك من رجال الحكومة، ألست مسئولًا عن أسعار الأشياء التي نأكلها؟ فترفع من سعرها قليلًا؟

فرد هاريسون: أوه.. اصمت.

❊ ❊ ❊

الفصل الثامن

إصابة في الذراع

على ظهر مركب الخمور، كان هاري قد ألقى آخر كيس، ثم قال للزنجي:

- أعطني سكين السمك.

- لقد فُقدت..

وأدار هاري المحركين.. كان قد أضاف للمركب محركًا جديدًا حين بدأ عمليات تهريب الخمور، ولكن ها قد شاء سوء حظه أن يأتي قارب ليراه، وتناول بلطة بيده اليسرى وتناول حبل الهلب فقطعه وفكر: سيعثرون عليه، سأذهب بالمحرك إلى جاريسون بايت، وليأخذوه إن أرادوا، ينبغي أن أذهب لطبيب، فأنا لا أريد أن أفقد المركب، وأفقد ذراعي أيضًا . كانت الشحنة أيضًا تساوي ثمن المركب، ولم يتحطم منها الكثير.

وبدأ المركب سيره مع الجزر مبتعدًا عن الأشجار الكثيفة، كانت الآلات تدور بيسر، وكان قارب الكابتن ويلي على مسافة ميلين، يسير متجهًا إلى بوكاجراندي، وزاد هاري من سرعة مركبه فأسرع في رشاقة وقوة، كم أتمنى ألا يأخذوه.. كم أتمنى أن يستطيعوا علاج ذراعي، كيف كنت أتوقع أن يطلقوا علينا الرصاص في ماريل، بينما نحن نذهب إلى هناك ونعود منذ ستة أشهر دون أن يحدث شيء.

وتطلع إلى القمرة خلفه، حيث كان الزنجي يرقد ممددًا وهو مغطى بالبطانية وقال له:

- هاي، ويسلي، كيف حالك؟

فقال ويسلي: يا إلهي، لا يوجد في العالم من هو أسوأ مني حالًا.

فرد عليه هاري: سيزداد سوءًا حين يبدأ الطبيب العجوز في علاجك.

فقال الزنجي: أنت لست بشرًا، أنت لا تحمل أية مشاعر إنسانية.

وأخذ يفكر في ويلي العجوز، إنه يعرف أنه يحسن التصرف دائمًا، من الأفضل له وللزنجي أن يعودا.. كانت عملية الانتظار هناك حماقة.

وأصبح في استطاعته الآن أن يرى أمامه فندق لاكونكا ببياضه الناصع، وصواري اللاسلكي، ومنازل البلدة.. كان قد بدأ يحس بسوء حالته وألمه، حين قال الزنجي:

– مستر هاري.. إنني آسف لأنني لم أستطع تفريغ تلك الشحنة.

فأجاب هاري: يا للجحيم، ألا تعلم أنه لا يوجد زنجي يستطيع أن يفعل شيئًا وهو مصاب بالرصاص. وأنت زنجي أصيل يا ويسلي..

وبالرغم من زئير المحرك، واندفاع المركب خلال الماء، أحس بأغنية جوفاء غريبة تتردد في قلبه، كان هذا الشعور ينتابه دائمًا في نهاية كل رحلة عند عودته إلى البيت، وفكر: كم أتمنى لو يستطيعوا علاج ذراعي.. فما زالت هناك مجالات كثيرة لأستعمل فيها هذه الذراع.

* * *

الفصل التاسع

ألبرت يتكلم

كنا جميعًا في مقهى فريدي، حين جاء ذلك المحامي الطويل النحيل وقال: أين جوان؟

وأجاب شخص ما: لم يعد بعد..

- إنني أعلم أنه عاد، وينبغي أن أراه.

فقال هاري: هذا ضروري، فأنت قد رشوتهم للإيقاع به، ثم أوقعته تحت طائلة الاتهام.. وهأنتذا الآن تنبري للدفاع عنه.

- لا تبحث عنه هنا.. فربما تجده في جيبك!

فقال المحامي: عليكم اللعنة، لقد حصلت له على عمل.

فرد هاري: حسنًا.. إذن اذهب وابحث عنه في مكان آخر، فهو ليس هنا.

فقال المحامي: إنني أقول لك إني حصلت له على عمل.

- أنت لا تستطيع الحصول على عمل لأي شخص، أنت لست إلا سمًّا!

وفي هذه اللحظة، يدخل الرجل ذو الشعر الرمادي الطويل الذي يتدلى فوق ياقته، والذي يبيع البضائع المصنوعة من المطاط، ليشتري زجاجة من الخمر من فريدي الذي يصبها له، ويأخذها ويخرج إلى الشارع.

وسأل المحامي هاري، وكان كمه الأيمن مشبوكًا بالدبابيس من عند كتفه: ماذا حدث لذراعك؟

- لم يعجبني منظرها، فقطعتها.

- من قطعها لك؟

فقال هاري: قطعتها بالاشتراك مع الطبيب..

كان يشرب وقد بدأ يمل الحديث، ولكنه استأنف قائلًا:

- ظللت ساكنًا، بينما قطعها هو.. ولو كانوا يقطعون كل الأيدي التي تسرق جيوب الآخرين، لما كان لك ذراعان ولا ساقان.

وسأله المحامي: ماذا حدث لها واستدعى قطعها؟

فأجاب هاري: لا تهتم بذلك..

- كلّا.. إنني أسألك ماذا حدث لها، وأين كنت؟

فرد هاري: اذهب وأزعج شخصًا آخر، فأنت تعلم أين كنت وماذا حدث.. أغلق فمك ولا تضايقني.

فقال له المحامي: أريد أن أتحدث معك.

- إذن تحدث معي.

- كلّا.. ليس هنا.

- أنا لا أود التحدث معك، فلا خير يأتي من ورائك مطلقًا..

- عندي شيء لك.. شيء طيب.

فقال هاري: حسنًا.. سأستمع إليك مرة.. عن أي شيء تريد الحديث؟ عن جوان؟

- كلّا.. ليس عن جوان.

وسارا إلى المؤخرة عند انحناءة البار، واختفيا لحظة، وأثناء اختفائهما حضرت ابنة بيج لوسي، ومعها تلك الفتاة التي تسكن في حيهم، وجلستا إلى البار وشربتا زجاجتي كوكاكولا.. وقال فريدي لابنة بيج لوسي:

- لقد قالوا لي إنهم لن يسمحوا لأية فتاة بالتسكع في الشوارع بعد السادسة، كما لن يسمحوا لأية فتاة بارتياد أماكن اللهو..

- أجل.. هذا ما يقولونه.

وقال فريدي: إن هذا المدينة ستصبح كالجحيم.

- إنها في الواقع قطعة من الجحيم، يكفي أن تخرج لتناول ساندوتش وزجاجة كوكاكولا ليقبضوا عليك، ويغرموك خمسة عشر دولارًا.

فتقول ابنة بيج لوسي: هذا كل ما يهتمون به الآن.

- إنهم يقبضون على أي أناس يتريضون، أو أي شخص تبدو عليه سيماء المرح.

- ما لم يحدث شيء سريع في هذه المدينة، فإن الأمور ستكون في غاية السوء.

وفى تلك اللحظة برز هاري والمحامي خارجين من خلف البار، وقال المحامي: ستأتي إلى هناك إذن؟

- ولم لا تحضرهم إلى هنا؟

- كلّا.. إنهم لا يريدون المجيء إلى هنا.. سنتقابل هناك.

- حسنًا..

قالها هاري ثم خطا إلى البار، بينما خرج المحامي، وسألني هاري: ماذا تريد أن تشرب يا آل؟

- باكاردي.

- فريدي، أعطنا اثنين من شراب باكاردي، ثم استدار إليَّ وقال: ماذا تشتغل الآن يا آل؟

- أشتغل مع عمال الترحيلة.

- ماذا تفعل بالضبط؟

-أحفر المجاري، وأرفع قضبان الترولي باس.

- وكم أجرك؟

- سبعة دولارات ونصف دولار.

- في الأسبوع؟

- وماذا تظن إذن؟

- إذن كيف تستطيع دفع ثمن شرابك هنا؟

فقلت له: لم أكن لأشرب لو لم تدعني..

فمال عليَّ قليلًا، وقال: هل تريد أن تقوم برحلة؟

- هذا يعتمد على نوعها.

- سنتكلم في هذا الموضوع.

- حسنًا..

فقال: تعال بنا نخرج إلى السيارة.. إلى اللقاء يا فريدي..

كان يتنفس بسرعة، وسرت إلى الشارع الذي كانت تجري فيه الإصلاحات، حيث كنا نشتغل طوال النهار، ثم انحرفت مع المنعطف، حيث كانت عربته، وقال لي: اركب.

فسألته: إلى أين ستذهب؟

فأجاب: لا أدري، سنعرف الآن.

وقاد السيارة في شارع هوايتهد، ولم ينبس ببنت شفة.. وعند ناصية الشارع استدار إلى اليسار، ثم سار في شارع هوايت، وخرج

متجهًا إلى الشاطئ، كان هاري صامتًا طوال الوقت.. ثم استدرنا إلى الطريق الرملي، واتجه هاري بالسيارة إلى شارع على جانبيه أشجار، وهناك أوقفها بجوار الرصيف، ثم قال: يريد بعض الغرباء استئجار مركبي للقيام برحلة.

- لقد حجزت الجمارك على مركبك.

- ولكن الغرباء لا يعلمون ذلك.

- أي نوع من الرحلات؟

- يقولون إنهم يريدون نقل شخص ما إلى كوبا ليقوم ببعض الأعمال.. شخص لا يستطيع السفر بالطائرة أو بالبحر، لقد قال لي «فم النحلة» هذا.

- وهل يسافرون بهذه الطريقة دائمًا؟

- بالتأكيد.. طوال الوقت منذ قامت الثورة.. إن العملية تبدو طيبة، وهناك كثيرون من الناس يسافرون بهذه الطريقة.

- وماذا بشأن المركب؟

- يتحتم علينا أن نسرقه.. أنت تعلم أنهم حجزوه حتى لا أستعمله.

- وكيف ستستطيع إخراجه من الحوض؟

- سأخرجه..!

- وكيف سنعود؟

- سأدبر هذا.. وإذا كنت لا تريد الذهاب قل لي.

- إنني مستعد للذهاب فورًا لو كان في الأمر نقود.

فقال: اسمع.. إنك تربح سبعة دولارات ونصف دولار في الأسبوع، ولديك ثلاثة أطفال في المدرسة يشعرون بالجوع وقت الغداء، لديك عائلة يؤلم الجوع مِعَدَ أفرادها، وهأنذا أعرض عليك فرصة لتربح بعض النقود.

- ولكنك لم تقل لي كم من النقود سأربح؟ ينبغى أن تأخذ أجرًا طيبًا نظير اصطيادك للفرص.

فقال: لم تعد هناك نقود كثيرة في أي نوع من الفرص يا آل، انظر إليَّ، لقد اعتدت أن أربح خمسة وثلاثين دولارًا في اليوم أثناء موسم الصيد، حين كان يستأجر المركب هواة الصيد، والآن، لقد أصبت بالرصاص وفقدت ذراعي، ومركبي أثناء نقلي لشحنة قذرة من الخمور لم تكن تساوي ثمن مركبي، ولكن دعني أقل لك، إنني لن أترك أطفالي يشعرون بالجوع، كما إنني لن أحفر المجاري للحكومة ثم أتناول أجرًا أقل مما يقيم أودهم، وعلى أية حال فأنا لا أصلح الآن لعمليات الحفر.. أنا لا أعرف من الذي وضع القوانين، ولكني أعرف أنه لا يوجد ثمة قانون يضطرك للجوع.

وقلت له: ولكن لا يوجد هنا أي عمل، كما لا يوجد في أي مكان عمل يفي بتكاليف الحياة.

- لماذا؟

- لا أدري..

فقال: وأنا كذلك لا أدري.. ولكن عائلتي ستأكل ما دام هناك فرد يأكل.. إن ما يحاولون القيام به هو تجويعكم، حتى يتمكنوا من حرق مساكنكم، ليقيموا مكانها عمارات شاهقة يسكنها السياح، هذا ما أسمعه، إنهم يريدون إبعادكم ليجعلوا من هذا المكان بقعة جميلة تجتذب السياح.

- إن آراءك متطرفة!

فأجاب: إنني لست متطرفًا.. ولكنني أشعر بالضيق.

- إن فقدان ذراعك يجعلك تشعر بالضيق.

- إلى الجحيم بذراعي.. لا أريد الكلام في هذا الموضوع.

ثم أدار السيارة وقال: هيا بنا، سنذهب للقاء هؤلاء الفتية.

وسرنا بالسيارة في الطريق الذي تحف به الأشجار، وقد بدأت الريح تهب ورائحة نباتات البحر العطنة تأتي إلينا، وتناهى إلينا صوت الأمواج وهي تخبط رصيف الميناء.. كان هاري يقود السيارة بيده اليسرى، وكنت أحبه، لقد خرجت معه إلى البحر مرات عديدة من قبل، ولكنه كان قد تغير الآن، منذ فقد ذراعه في حادث تهريب الخمور، وحين فقد مركبه زادت حالته سوءًا، كنت أعرف أنه مسرور لأنه سيجد مبررًا لسرقته، وكان هو يعرف أنه لن يتمكن من الاحتفاظ

به.. ولكن كان يستطيع أن يربح به بعض المال وهو في حوزته، وكنت أنا في مسيس الحاجة إلى نقود، ولكني لم أكن راغبًا في الوقوع في أية مشاكل، فقلت له:

- هاري، أنت تعلم أنني لا أريد الوقوع في أية مشاكل حقيقية.

فأجاب: وهل توجد مشاكل أسوأ من تلك التي تعيش فيها الآن؟.. هل هناك مشاكل أقصى من الموت جوعًا؟

قلت له: إنني لن أموت جوعًا، لماذا تتكلم دائمًا عن الموت جوعًا بحق الجحيم؟

- ربما لا تموت أنت من الجوع، ولكن أطفالك سيموتون.

فأجبته: اسكت، سأشتغل معك ولكن لا تحدثني عن هذا الموضوع.

فقال: حسنًا.. ولكن تأكد أنك أنت الذي أردت هذا العمل، فأنا أستطيع الحصول على كثير من الرجال في هذه البلدة..

فقلت في انفعال: أجل.. إنني أريده، لقد قلت لك إنني أريده.

ورد قائلًا: تقبل الأمور ببساطة.

وأصبح في استطاعتي رؤية أنوار ذلك المكان أمامنا، وحينئذ قال هاري: سنقابلهم هنا.. احتفظ بفمك مغلقًا.

- فلتذهب إلى الجحيم.

- أوه.. تشجع.

قالها هاري، ثم أدار السيارة في الطريق الضيق، ودار حول المبنى ووقف خلفه، ثم نزلنا من السيارة، ودخلنا المطبخ حيث كانت زوجة الرجل تطهو على الموقد، وقال لها هاري:

- هاللو، فريدا.. أين «فم النحلة»؟

- إنه هناك بالداخل يا هاري.. هاللو، ألبرت.

فقلت: هاللو مس ريتشارد.

كنت أعرفها منذ كانت تعمل في البلدة، كانت امرأة مكافحة، وسألتني: هل عائلتك جميعها بخير؟

- إنهم جميعًا بخير..

ودخلنا من المطبخ إلى الغرفة الخلفية.. كان هناك المحامي «فم النحلة» ومعه أربعة من الكوبيين، وهم يجلسون جميعًا حول مائدة، وقال أحد الكوبيين بالإنجليزية: اجلسا.

كان فتى تبدو عليه القسوة، ضخمًا، ذا صوت عميق ينبعث من حنجرته في حشرجة، وكان من الواضح أنه شرب كثيرًا، وسأل:

- ما اسمك؟

فقال هاري: ما اسمك أنت؟

فقال الكوبي: حسنًا.. لن ألح في الأسئلة، ولكن أين يوجد المركب؟

فأجاب هاري: في حوض اليخوت.

وسأل الكوبى، وهو ينظر إلىّ: ومن يكون هذا؟

فأجاب هاري: زميلي.

كان الكوبي يتفحصني بنظراته، بينما أخذ الكوبيون الآخرون يحدقون فينا، وقال الكوبي وهو يضحك: إنه يبدو جائعًا.

ولكن الآخرين لم يضحكوا، وسأل الكوبي: هل تريد شرابًا؟

فأجاب هاري: حسنًا.

- من أي نوع؟ باكاردى؟

ورد عليه هاري: من الشراب الذي تشرب منه.

- وهل يشرب زميلك؟

فقلت: سأتناول كأسًا.

فرد الكوبي الضخم: لم يسألك أحد بعد، كنت أسأل فقط هل تشرب أمْ لا؟

فقال أحد الكوبيين الآخرين، وكان شابًّا فتيًّا، لا يزيد إلا قليلًا عن صبي:

- أوه.. اسكت يا روبرتو.. ألا تستطيع أن تنجز أي عمل دون أن تكون وقحًا؟

- ماذا تقصد بوقح؟.. لقد كنت أسأله فقط إذا ما كان يشرب.

- ألا تسأل الشخص الذي تستأجره عما إذا كان يشرب أم لا؟

فقال الكوبي الأخير: قدم له شرابًا، ودعنا نتكلم في العمل.

وسأل الكوبي ذو الصوت العميق هاري قائلًا: كم تريد إيجارًا للمركب أيها الفتى؟

فأجاب هاري: هذا يتوقف على نوع العمل الذي سنقوم به.

- ستأخذنا نحن الأربعة إلى كوبا.

- إلى أي مكان في كوبا؟

- كاباناس.. بالقرب من كاباناس.. أسفل الشاطئ من ناحية ماريل، هل تعرف هذا المكان؟

فرد هاري: بالتأكيد.. هل سآخذكم إلى هناك فحسب؟

- أجل.. هذا كل ما في الأمر.. أن تقلنا إلى هناك، وتنزلنا على الشاطئ.

- ثلاثمائة دولار.

- هذا كثير جدًّا.. ما رأيك لو استأجرناك باليومية، وضمنا لك إيجار أسبوعين؟

- أربعين دولارًا في اليوم، وعليك أن تدفع تأمينًا قدره ألف وخمسمائة دولار فيما لو حدث أن أصاب المركب مكروه.. هل أعد المركب؟

- كلّا..

وقال هاري: وستدفع ثمن الوقود والزيت.

- سندفع لك مائتي دولار لتنقلنا إلى هناك وتنزلنا على الشاطئ.

- كلا..

- إذن كم تريد؟

- لقد قلت لك من قبل..

- ولكن هذا كثير جدًّا

فرد هاري: كلا.. هذا ليس بالكثير.. فأنا لا أعلم من أنتم، ولا أعرف نوع عمليتكم، ولا من سيطلق الرصاص عليكم، وسيتحتم عليَّ أن أعبر الخليج مرتين في هذا الشتاء.. وعلى أية حال فإني أخاطر بمركبي، سأنقلكم بمائتي دولار على أن تدفعوا ألفا كضمان للمركب.

وهنا قال لهم «فم النحلة»: هذا معقول.. هذا أكثر من معقول.

وبدأ الكوبيون يتحدثون بالإسبانية.. كنت لا أفهم حديثهم، ولكني كنت أعرف أن هاري يفهمهم، وأخيرًا قال روبرتو الضخم:

- حسنًا.. متى تستطيع أن تبدأ السفر؟

- في أي وقت من ليلة الغد.

فقال واحد منهم: ربما لا نرغب في الذهاب قبل الليلة التالية..

فرد هاري: هذا لا يلائمني.. عليكم فقط أن تخبروني في الوقت

المناسب.

- هل مظهر مركبك أنيق؟

فقال هاري: بالتأكيد.

وقال أصغرهم سنًّا: إنه مركب أنيق.

- وأين رأيته؟

- لقد أرانيه مستر سيمونز المحامي.

فقال هاري: أوه..

وقال كوبي آخر: تناول شرابك وقل لي، هل ذهبت إلى كوبا مرات عديدة؟

- بضع مرات..

- هل تتكلم الإسبانية؟

فقال هاري: لم أتعلمها مطلقًا.

ورأيت المحامي «فم النحلة» ينظر إلى هاري، ولكنه كان هو نفسه كذابًا، لدرجة تجعله يشعر بالسرور حين يسمع الناس يكذبون، وقال الكوبي:

- ولكن مستر سيمونز يتكلم الإسبانية بطلاقة.

- لقد تلقى تعليمه.

-هل يمكنك الإبحار؟

- أستطيع الذهاب والعودة.

- هل أنت صياد سمك؟

فأجاب هاري: أجل يا سيدي..

وسأله الرجل ذو الوجه الضخم: وكيف تستطيع الصيد بذراع واحدة؟

فرد عليه هاري قائلًا:

- يمكنك أن تصيد، بضعف سرعة من له ذراعان، والآن هل تريد أن تتحرى عن أي شيء آخر؟

-كلا..

كانوا يتكلمون بالإسبانية مع بعضهم بعضًا، وقال هاري:

-إذن سأنصرف.

فقال «فم النحلة» لهاري: سأبلغك أنا بموعد الرحلة.

فرد هاري: ينبغي دفع النقود مقدمًا.

-سنفعل هذا غدًا.

فقال لهم هاري: حسنًا.. طابت ليلتكم.

فرد عليه الفتى ذو المظهر الأنيق قائلًا: طابت ليلتك.

ولم يفه ذو الوجه الضخم بأية كلمة.. وكان هناك الاثنان الآخران بوجهيهما اللذين كوجوه الهنود، وهذان لم يقولا أي شيء طوال

الوقت سوى التحدث بالإسبانية مع ذي الوجه الضخم، وقال «فم النحلة» لهاري وهو يتهيأ للانصراف: سأراك فيما بعد.

-أين؟

-عند فريدي.

وخرجنا عن طريق المطبخ مرة أخرى، وسألته فريدا:

-كيف حال ماري يا هاري؟

فأجابها هاري: إنها بخير الآن.. لقد تحسنت حالتها الآن.

وخرجنا.. وركبنا السيارة، وقادها هاري في الشارع الذي تحف به الأشجار، ولم يقل أي شيء على الإطلاق، كان يفكر في شيء ما.

-هل أوصلك إلى منزلك؟

-حسنًا..

-هل تسكن على الطريق الزراعي الآن؟

- أجل.. ولكن ماذا بشأن الرحلة؟

فقال: لا أدري.. لا أدري هل ستكون ثمة رحلة أو لا؟ سأراك غدًا.

وأنزلني أمام مسكننا، ودخلت، ولم أكد أفتح الباب حتى انهالت عليَّ زوجتي بالسباب لتأخري وسكري، وحين سألتها من أين أستطيع الشراب، وأنا لا أتقاضى إلا أجرًا تافهًا ولا يوجد من يقرضني..

طلبت مني السكوت والجلوس إلى المائدة.. وجلست إلى المائدة.. كان الأطفال قد ذهبوا لمشاهدة إحدى المباريات، وأخذت هي تضع صحاف الطعام دون أن تحاول التحدث إليَّ.

❊ ❊ ❊

الفصل العاشر

هاري يفكر

لم أكن راغبًا في أن أخسر في هذه الصفقة، ولكن لم يكن أمامي مجال للاختيار، في استطاعتي التخلي عنها، ولكن ماذا سيكون الأمر في المرة القادمة؟ لم أطلب أي عمل من هذا النوع، ولكني كنت أقبله ما دام يُعرض عليَّ، ربما يتحتم عليَّ ألا آخذ ألبرت.. فهو غبي، ولكنه مستقيم وممتاز على ظهر المركب، ثم إنني لا أستطيع كذلك أن آخذ معي سكيرًا أو زنجيًّا، ويتحتم عليَّ أن أخذ شخصًا أستطيع الاعتماد عليه، وطبعًا سأعطيه نصيبه.. كان من الأفضل فعلًا أن أتم العملية وحدي، ولكنني لا أعتقد أني أستطيع، وألبرت أفضل الناس ما دام لا يعرف تفاصيل الموضوع، وهناك أيضًا «فم النحلة» وهذا يعرف التفاصيل، ولكن لا بد أنهم فكروا في أمره، ولكن هل تعتقد أن «فم النحلة» من الغباء بحيث لا يفكر فيما سوف يفعلون به؟ ربما لم يفكروا في هذا، ولكن من الطبيعي أن هذا ما سوف يفعلونه، ولكنهم إذا كانوا سيفعلون له شيئًا فسيفعلونه حين تنتهي العملية، وإلا تعرضوا لخطر طائرات الحراسة.

– حسنًا.. إذا كان عليَّ أن أنقلهم، فيجب أن أدبر أمر المركب، من السهل إخراجه، ولكني لو أخذته الليلة، فستكتشف السلطات اختفاءه وربما تعثر عليه، والليلة هي أنسب وقت للاستيلاء عليه، أستطيع الخروج به مع الجزر، ثم إخفاءه، وبهذا يمكنني معرفة ما إذا كان يحتاج إلى أي شيء، وينبغى عليَّ أن أزوده بالوقود والماء، ثم أخفيه، ويحضرهم ألبرت في زورق بخاري، يستأجره هو.. لا، الأفضل أن يستأجره «فم النحلة» لأنه من المؤكد أنهم دبروا أمره، ربما يكونون قد دبروا أمري وأمر ألبرت كذلك، هل يشبه أحد منهم البحارة؟ فلأتذكر.. أجل، ربما.. ربما كان المرِح بحارًا، ذلك الشاب الصغير، لا شك أنهم سيفرغون مني ومن ألبرت، إن آجلًا أو عاجلًا، سيكون لديهم الوقت لذلك أثناء عبور الخليج، ولكنني سأسوي الأمر، ينبغي أن أفكر فيه طوال الوقت.. لا يمكن السماح بغلطة، غلطة واحدة، أية غلطة، حسنًا.. أمامي الآن ما أفكر فيه، أمامي ما أفعله، وما أفكر فيه غير ما يمكن أن يحدث، آه من «فم النحلة» ذلك.. إنه لا يدري بالمشكلة التي تورط فيها، ليس لديه أدنى فكرة عما سيحدث، آمل أن يأتي بسرعة عند فريدي، فلديَّ الكثير لأفعله الليلة، من الأفضل أن أبحث عن شيء آكله.

كانت الساعة حوالي التاسعة والنصف حين جاء «فم النحلة» إلى مقهى فريدي، وكان من الواضح أنهم أعطوه الكثير من المال لأنه كان يبدو عليه الكبرياء، وقال لهاري:

- حسنًا.. أيتها القذيفة الضخمة، إنني أريد التحدث معك.

فسأله هاري: أين؟ في مكتبك الخلفي؟

- أجل.. هناك.. هل هناك أحد يا فريدي؟

- أبدًا بالمرة ، لقد انعدمت الزبائن منذ أن بدأ تنفيذ قانون الحظر، قل لي إلى متى سيظل قانون الساعة السادسة مطبقًا؟

فقال «فم النحلة»: لم لا تستأجرني لأفعل لك شيئًا بخصوص هذا القانون؟

فأجابه فريدي: فلتذهب إلى جهنم.

وذهب الاثنان إلى المؤخرة، حيث توجد الصناديق الفارغة.

كان بالسقف مصباح واحد مضاء، وتطلع هاري حواليه في الأركان المظلمة ليرى إذا كان هناك أحد، ثم قال: حسنًا، ماذا تريد؟

فقال له «فم النحلة» إنهم يريدون المركب في ساعة متأخرة من أصيل بعد غد.

- وماذا سيفعلون؟

وسأله «فم النحلة»: لماذا أنكرت معرفتك باللغة الإسبانية؟

- أنت لم تخبرهم بهذا؟

- كلا.. إنني صديقك، وأنت تعلم هذا.

- إنك مستعد حتى لبيع أمك.

-اسمع.. انتبه إلى ما سأقوله لك.

-منذ متى صرت جادًّا؟

- اسمع.. إنني محتاج إلى النقود، وينبغى عليَّ مغادرة هذه البلدة، لقد أفلست هنا، وأنت تعلم هذا يا هاري.

- ومن الذي لا يعلمه؟

- أنت تعلم أنهم يمولون تلك الثورة عن طريق الاختطاف وغير ذلك..

- أجل.. أعلم.

- ولكنهم يفعلون ذلك من أجل هدف مجيد، ولهذا فسأذهب معهم!!.

- ولكنك تعيش هنا منذ مدة طويلة.. هذا هو المكان الذي ولدت فيه، وأنت تعرف كل شخص يعمل هنا، وزيادة على ذلك فقد يكون ذهابك معهم في غير مصلحتك.

- لن يحدث سوء لأي شخص.

- مع هؤلاء الفتية يتزايد إحساس الإنسان بالخطر.

- كنت أظنك عاقلًا..

- إنني عاقل فعلًا، ولكني أدبر أموري على أساس العيش هنا.

فقال «فم النحلة»: ولكني لن أفعل.. إنني أنوي مغادرة هذه البلدة.

وصمت لحظة، ثم سألته: متى سيخرج المركب؟

- الليلة..

- ومن سيساعدك؟..

- أنت!..

- وأين ستخفيه؟..

- حيث تعودت أن أخفيه دائمًا..

لم يكن من العسير إخراج المركب.. كان الأمر سهلًا كما تخيل هاري، فالحارس الليلي يقوم بدورياته في ساعة محددة، ثم يقضي الوقت بعد ذلك عند البوابة الخارجية، أتى «فم النحلة» وهاري في قارب صغير وفكا حباله، ثم تركاه يسير مع الجزر، وبينما كان يسير في القناة، فحص هاري المحركات، فوجد أن كل ما فعلوه هو أنهم فكوا التوصيلة الكهربائية، واختبر الوقود، فوجد به ما يقرب من مائة وأربعين جالونًا، هي ما تبقت من آخر عبور له به، وقال «فم النحلة»:

- لديَّ في المنزل خزان مليء بالوقود، وفي استطاعتي نقل صفيحة منه في السيارة، ثم يستطيع ألبرت إحضار واحدة أخرى إذا احتجنا، وسأبقي المركب في المنطقة التي يقطع فيها البحر الطريق، ويمكنهم المجيء بالسيارة.

- ولكنهم يريدون منك أن تنتظرهم على رصيف الميناء.

- وكيف أستطيع البقاء هنا بهذا المركب المسروق؟

- إنك لا تستطيع، ولكني أعتقد أنهم لا يريدون استعمال أية سيارة.

- حسنًا... يمكننا أن نرسيه هناك الليلة، حيث أستطيع تزويده بالوقود وإجراء اللازم له، ثم أنقله بعد ذلك من مكانه، وفي استطاعتك أن تستأجر قاربًا سريعًا تحضرهم به، والآن ينبغي عليَّ أن أذهب به إلى هناك، فأمامي الكثير لأعمله، وعليك أن تعود لأخذي بسيارتك، وسوف أكون في انتظارك في الطريق بعد ساعتين.. سأترك المركب هناك وأخرج لملاقاتك في الطريق.

فقال «فم النحلة»: سأعود لآخذك..

وأدار هاري محركات المركب ليسير بهدوء فوق صفحة الماء، واستدار به، ثم أدلى سلم الحبال وأمسك بالقارب الصغير الذي قدما فيه، فنزل إليه «فم النحلة» وقال له هاري: خلال ساعتين.

فرد عليه قائلًا: حسنًا..

جلس هاري إلى عجلة القيادة، وقد أخذ المركب يتحرك ببطء خلال الظلام، وهو يبتعد به عن الأضواء المنعكسة التي على أرصفة الميناء، وفكر: إن «فم النحلة» يفعل أي شيء في سبيل النقود، ولكن أي مبلغ سيحصل عليه؟ لست أدري أين يعثر على أمثال هؤلاء الفتية، لا شك أنه كان فتى أنيقًا، أتيحت أمامه الفرصة ذات مرة للاحتيال، ولم يدعها تفلت منه.

الفصل الحادي عشر

البحّار القلق

حين عاد إلى المنزل لم يضئ النور، بل خلع حذاءه في الردهة، وصعد السلم بقدميه في الجوارب فقط، وخلع ثيابه واستلقى على الفراش، وحينئذ استيقظت زوجته وتساءلت في الظلام:

- هاري؟..

- عودي للنوم أيتها العجوز..

- هاري.. ماذا هنالك؟

- سأقوم برحلة..

- مع من؟..

- لا أحد.. ولكن ربما مع ألبرت..

- ستذهب إلى السجن يا هاري، لأنك سرقت المركب..

- لا يعلم أحد أنني أخذت المركب..

- وأين هو إذن؟..

- مخبأ..

- حسنًا.. نم الآن وسأوقظك، لا تقلق..

وقبلته.. ثم استلقت في أحضانه، ولكنها لم تنم، ظلت تفكر في أيامها الغابرة، تلك الأيام السعيدة التي قضياها معًا، وفي بناتها، وفي زوجها الحبيب، ونظرت إليه وهو نائم، كالصبي الصغير.

وقبل أن يشرق نور الفجر بساعتين، كانا في الجراج بجوار خزان الوقود، يملآن الصفائح، ويضعانها في حقيبة السيارة، كان هاري يرتدي خطافًا مثبتًا في ذراعه اليمنى، ويؤدي العمل بسهولة ويسر.

- هل تريد أن تتناول الإفطار؟..

- حين أعود..

- هل تريد قهوتك؟..

- لا مانع من إحضارها.

وأحضرت القهوة، وجلس يحتسيها على مقعد السيارة، وتناولت منه الفنجان ووضعته على رف الجراج، ثم قالت:

- سآتي معك لأعاونك في نقل الصفائح.

- حسنًا..

وركبت إلى جواره.. كانت امرأة ضخمة، بساقين طويلتين، وردفين ثقيلين، وما زالت بها بقايا أناقة غابرة، وقد وضعت قبعة فوق شعرها الأشقر الأشيب، واخترقا حدود البلدة وهما يسيران بالسيارة خلال الظلام والبرد والضباب الكثيف.

- لم أنت قلق يا هاري؟

- لا أدري.. اسمعي.. هل ستتركين شعرك يطول؟

- أعتقد أنني سأفعل.. فالبنات يلححن عليَّ دائمًا أن أفعل.

- فليذهبن إلى الجحيم.. أبقيه كما هو.

- هل ما زلت حقًّا تحبني؟

- أنت أجمل النساء جميعًا..

- سأحتفظ به إذن كما هو.. وفي استطاعتي أن أجعله أكثر شقرة إذا أحببت..

فقال هاري: ما شأن البنات بما تفعلين؟ ليس من شأنهن أن يضايقنك.

- أنت تعلم أن كل الفتيات هكذا.. اسمع.. إذا كانت رحلتك موفقة فإننا سنذهب بعد عودتك إلى نيو أورليانز، أليس كذلك؟

- بل إلى ميامي.

- حسنًا.. فليكن.. إلى ميامي.. سنذهب وحيدين ونتركهن هنا.

- ينبغى عليَّ أن أقوم بالرحلة أولًا.

- لم تعد قلقًا.. أليس كذلك؟

- كلا..

- أنت تعرف أنني أسهر الليل أفكر فيك.

فرد هاري قائلًا: حسنًا.. ينبغي أن نفرغ هذا الوقود أولًا.

* * *

الفصل الثاني عشر

اختفاء المركب المسروق

في الساعة العاشرة صباحًا كان هاري في مقهى فريدي واقفًا إلى جوار البار، ومعه أربعة أو خمسة أشخاص آخرين، وقد تركه توًّا اثنان من رجال الجمارك، كانا قد سألاه عن المركب، وأجابهما بأنه لا يعلم أي شيء عنه..

وسأله أحدهما: أين كنت في الليلة الماضية؟

- كنت هنا.. ثم ذهبت إلى البيت.

- وبقيت هنا إلى متى؟

- حتى أغلق المقهى أبوابه...

- هل رآك أحد وأنت هنا؟

فقال ثائرًا: أتظنان أني أسرق مركبي؟ ماذا سأفعل به؟

وأجابه ضابط الجمارك:

- لقد سألتك فقط أين كنت.. فلا تفقد أعصابك.

- إنني لم أفقد أعصابي.. فقد فقدتها حين حجزوا المركب، دون أن يكون لديهم أي دليل على أنه كان ينقل الخمور.

- لقد كانت هناك شهادة بذلك، حقًّا لم تكن شهادتي أنا، ولكنك تعرف الرجل الذي أدلى بالشهادة.

- حسنًا.. ولكن لا تقل إنني أفقد أعصابي حين تسألني، فإنني كنت أفضل أن تظلوا محتفظين بالمركب، حتى تتاح لي فرصة لاسترداده.. أية فرصة أمامي الآن إذا كان قد سُرق؟

- أعتقد أنه لم تعد لديك فرصة لاسترداده فعلًا.

- حسنًا.. اذهب إذن ومزق أوراقك فلم تعد ذات فائدة، ما دام المركب قد سُرق!!.

- لا تتباكَ، وإلا أوجدت لك ما تبكي من أجله.

- هل أبكي بعد خمسة عشر عامًا؟

- ألم تبك منذ خمسة عشر عامًا؟

- كلا.. ولم أذهب إلى السجن أيضًا.

- حسنًا.. لا تتباكَ وإلا جعلتك تذهب إليه.

- لا تشغل بالك بهذا!!.

وحينئذ دخل المقهى كوبي يعمل سائق تاكسي وبصحبته رجل آخر، وجلسا في البار يتحادثان، ثم طلبا شرابًا وانصرفا، وفي تلك اللحظة دخل المحامي «فم النحلة» وقال لهاري:

- لقد خرج رجال الجمارك منذ برهة ليستولوا على مركبك.

وتطلع هاري إليه، وقد ارتسم على وجهه شبح الجريمة، واستمر «فم النحلة» يتحدث بصوته الخالي من التعبير: لقد رآه أحد الأشخاص مختفيًا بين الأشجار الكثيفة، أثناء قيادته لأحد الجرارات، فاتصل تليفونيًّا من معسكر بوكاتشيكا برجال الجمارك، لقد رأيت هيرمان فردريتش منذ برهة وأخبرني بذلك.

وصمت هاري برهة، ثم قال «لفم النحلة»:

- أنت فقط تسمع عن كل شيء ولكنك لا تفعل شيئًا.. أليس كذلك؟..

فأجابه «فم النحلة» بصوته الخالي من التعبير:

- كنت أعتقد أنه يهمك أن تعرف.

ورد عليه هاري: ليس في الأمر ما يخصني، عليهم أن يعتنوا بحراسة المركب أكثر من ذلك.

ووقف الرجلان هناك عند البار صامتين حتى انصرف الثلاثة الذين كانوا يتسكعون حول البار، وحينئذ ذهبا إلى المكتب الخلفي.

وقال هاري: إنك سم، وكل ما تلمسه يصير سامًّا.

- هل خطئي أن جرارًا استطاع رؤيته؟ لقد اخترت أنت المكان، وأنت الذي خبأت مركبك.

- اسكت.. هل كانت لديهم جرارات عالية كتلك من قبل؟ كانت تلك آخر فرصة أمامي لكسب نقود عن طريق شريف، كانت تلك آخر فرصة أستطيع الحصول منها على النقود عن طريق مركبي.

- لقد أخبرتك بالحادث بمجرد وقوعه.

- إنك أحمق.

فقال «فم النحلة»: اسكت.. على أية حال يريد الزبائن السفر في وقت متأخر من أصيل اليوم.

- إلى الجحيم بهم.

- لقد تملكهم القلق بسبب شيء ما.

- متى يريدون الرحيل؟

- في الخامسة مساء.

- سأحصل على مركب، وسأنقلهم إلى جهنم.

- ليست هذه فكرة رديئة.

- ليس لك دخل في هذا، واحتفظ بفمك بعيدًا عن أعمالي.

فقال «فم النحلة»:

– اسمع.. أنت أيها الوغد الكبير القاتل، إنني أحاول إخراجك من هذه الورطة، وأحاول أن أجد لك حلًّا.

– وكل ما تفعله في سبيل ذلك هو أن تسمم أفكاري، اصمت، إنك تسمم أفكار كل من تتصل بهم.

– اسكت أيها الثور.

فرد عليه هاري في هدوء:

– تحمّلني، فينبغى عليَّ أن أفكر في الأمر.. كنت قد دبرت الأمر كله وفكرت فيه كثيرًا، والآن يتحتم أن أفكر في حل جديد.

– لم لا تدعني أساعدك؟

– عليك أن تكون هنا في الساعة الثانية عشرة وتحضر معك النقود التي اتفقنا عليها كضمان للمركب.

وأثناء خروجهما من المكتب الخلفي، وصل ألبرت، وتوجه إلى هاري، فقال له: آسف يا ألبرت، لن أستطيع استخدامك.

كان قد فكر في الأمر طويلًا، ورأى أنه من الأصوب ألا يأخذه معه.

ورد عليه ألبرت: سأشتغل بأجر زهيد.

فأجابه هاري: آسف.. لم أعد في حاجة إلى استخدامك.

وقال له ألبرت: لن تجد رجلًا يؤدي ما يمكنني القيام به.

- سأذهب وحدي..

- أنت لا ترغب في القيام وحدك برحلة من هذا النوع.

فصاح فيه هاري:

- اسكت.. وماذا تعرف أنت عن هذة الرحلة؟ هل علموك في الترحيلة طبيعة عملي؟

فأجابه ألبرت: اذهب للجحيم.

ورد عليه هاري: فعلًا، ربما أذهب إلى هناك.

ولو نظر المرء إلى هاري في تلك اللحظة، لتبين بوضوح أنه كان يفكر بسرعة، وأنه ليس في حاجة إلى من يضايقه.

وقال له ألبرت بعد برهة: إنني أود أن أذهب معك.

فرد عليه هاري:

- لا أستطيع استخدامك.. هل لك أن تتركني برهة؟

وخرج ألبرت، بينما ظل هاري واقفًا بجوار الباب ينظر إلى الصور المعلقة على الجدران، وكأنه لم يرها من قبل.. ثم استدار إلى فريدي، وقال له: أعطني علبة سجائر تشستر فيلد.

واحتضن علبة السجائر تحت الجزء المتبقي من ذراعه اليمنى، وفتحها وأخرج منها سيجارة وضعها في فمه، ثم أسقط العلبة في جيبه وأشعل السيجارة، وقال: فريدي، كيف حال مركبك؟

وأجابه فريدي: إنه في حالة جيدة.

- أتريد أن تؤجره؟

- في أي غرض ستستعمل؟

- للقيام برحلة عبور.

- لا مانع، على أن يدفع تأمينًا يساوي قيمته.

- وكم يساوي المركب؟

- ألفًا ومائتي دولار.

فقال هاري: سأستأجره أنا، هل تستأمنني عليه؟

فأجابه فريدي: كلا..

- سأجعل منزلي ضامنًا له.

- أنا لا أريد منزلك، بل أريد ألفًا ومائتي دولار نقدًا.

- حسنًا..

فقال له فريدي: وعليك أن تدفع النقود مقدمًا.

- حين يأتي «فم النحلة» إلى هنا، قل له أن ينتظرني.

قالها هاري، وخرج.

* * *

الفصل الثالث عشر

نصيحة زوجة

وفي المنزل كانت ماري والبنات يتناولن غداءهن في الغرفة الخارجية، وقالت كبرى البنات: ها هو ذا بابا قد أتى.

فسألها هاري: ماذا تأكلن؟

- لحمًا مشويًّا.

- بابا، يقول أحدهم أنهم سرقوا مركبك.

- لقد عثروا عليه.

وتطلعت ماري إليه، ثم سألته:

- من الذين عثروا عليه؟

- رجال الجمارك.

- أوه يا هاري، كان الله في عونك.

ثم سألته البنت الثانية:

- أليس من الأفضل أنهم وجدوا المركب يا بابا؟

فقال لها هاري: لا تتكلمي أثناء الأكل.. أين غدائي؟..

- سأحضره فورًا.

فرد هاري: إنني في عجلة.. وأنتن يا بنات، كلن ثم انصرفن فلديَّ حديث مع والدتكن.

- هل يمكن أن تعطينا بعض النقود لنذهب إلى السينما أصيل اليوم يا بابا؟

- لم لا تذهبن للسباحة؟.. هذا متعة مجانية.

- أوه يا بابا، ولكن الجو بارد جدًّا بالنسبة للسباحة، وبالإضافة إلى هذا فنحن نريد الذهاب إلى السينما.

فقال هاري: حسنًا.. حسنًا..

وحين انصرفت البنات قال لماري: هل تقطعين اللحم لي؟

-أوه.. بالتأكيد يا عزيزي.

وأخذت تقطع اللحم، وكأنها تقطعه لطفل صغير.

وقال هاري:

- شكرًا.. إنني أسبب لك مضايقة لعينة، أليس كذلك؟..

- ولكن البنات لا يسببن لك مثل هذا المضايقة.. أليس كذلك؟

- كلا يا عزيزي..

- من المضحك أنه ليس لدينا أولاد..

- إن أمثالك من الرجال لا ينجبون أولادًا.

فرد هاري قائلًا: اللعنة على أمثالي، إنني سأقوم برحلة لعينة.

- حدثني عما حدث للمركب؟

- لقد رأوه من فوق جرار، جرار مرتفع.

وسألته ماري: عزيزي.. ألست على ما يرام؟

فأجابها هاري: كلا.. إنني فقط أفكر في رحلتي القادمة.

- حسنًا.. فكر في الأمر، وثقتي بك كبيرة.

- أجل... الثقة، هذا هو الشيء الوحيد المتوافر لديَّ.

- ألا تريد أن تفصح لي عما تفكر فيه؟

- كلا.. ولكن لا تأبهي لأي شيء قد تسمعينه فيما بعد.

- سأفعل..

- اسمعي يا ماري، اذهبي إلى أعلى، واصعدي إلى المخزن الذي فوق السلم، وأحضري لي البندقية التومي، وانظري في ذلك الصندوق الذي أحتفظ فيه بالذخيرة لتري إذا كانت الطلقات سليمة، وأن جميع الخزائن ملأى.

- لا تأخذ هذه البندقية.

- يتحتم عليَّ أن آخذها.

- هل تريد صناديق رصاص؟

- كلا... فأنا لا أستطيع تعبئة أية خزانة، وعلى أية حال لديَّ أربع خزائن مملوءة بالرصاص، وهذا يكفي.

- عزيزي، لا شك أنك لست ذاهبًا في رحلة من النوع الخطر؟

- إنني ذاهب في رحلة بشعة..

فقالت في انفعال: أوه... يا إلهي.. كم كنت أتمنى ألا تضطر للقيام بمثل هذه الأعمال.

- هيا.. اذهبي وأحضريها إلى هنا.. وأحضري لي القهوة.

- حسنًا..

ثم اتكأت على المنضدة وقبلته فقال لها: اتركيني الآن وحدي..

وجلس هاري إلى المنضدة، ونظر إلى البيانو، والراديو، وصورة «صباح في سبتمبر» وصورة كيوبيد المعلقة على الحائط، ثم نظر إلى المائدة المصقولة المصنوعة من خشب البلوط الحقيقي بكراسيها، ثم إلى الستائر والنوافذ وفكر: أية فرصة أمامي لأستمتع ببيتي؟.. لماذا عدت القهقرى إلى حال أسوأ من التي بدأت عليها؟ بل قد أفقد كل هذا، إذا لم أتقن اللعبة القادمة، ولعن زوجته التي لم تنجب له سوى البنات. أولئك البنات الملاعين، وقالت ماري وهي تحمل البندقية من حمالتها الجلدية:

- ها هي ذي.. وجميع الخزائن ملأى بالرصاص.

- ينبغي عليَّ أن أذهب.

ورفع البندقية بجرابها الملطخ بالزيت، ثم استطرد قائلًا:

- ضعيها تحت مقعد السيارة الأمامي.

فقالت ماري: إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.. وأرجو ألا يسيطر عليك القلق.

- لن أقلق.. ولكن أرجوك، حاذر على نفسك.

وربت على ظهرها بالجزء المتبقي من ذراعه، فقالت له:

- هاري، كن حذرًا.

- يتحتم عليَّ أن أذهب الآن... إلى اللقاء أيتها العجوز.

- إلى اللقاء.. هاري.

وتطلعت إليه وهو يخرج من المنزل.. كان طويلًا، عريض المنكبين، مستقيم الظهر، يتحرك بمنتهى الرشاقة والنعومة، وحين ركب السيارة، رأته أشقر.. لوحت الشمس شعره، وبدا وجهه عريضًا بعظمتي وجنتيه البارزتين، وفمه الواسع، وفكيه المستديرين، وابتسم لها وهو يركب السيارة، وبدأت تبكي وهي تقول لنفسها: يا لوجهه الحبيب.. في كل وقت أرى فيه وجهه، تتملكني الرغبة في البكاء.

* * *

الفصل الرابع عشر

لقاء في المقهى

كان هناك ثلاثة من السياح في مقهى فريدي يجلسون إلى البار، ويقوم فريدي بخدمتهم، كان أحدهم رجلًا بالغ الطول، نحيلًا، عريض المنكبين، يرتدي بنطلونًا قصيرًا، ونظارة ذات عدسات سميكة، وله شارب رفيع مشذب، وكانت المرأة التي معه قد قصت شعرها الأشقر المجعد حتى غدا كشعر الرجل، وكان وجهها وجسدها مثل وجه وجسد المصارعات، وكانت ترتدي أيضا بنطلونًا قصيرًا.

أما الثالث فكان ذا وجه متورد منتفخ قليلًا، وشارب بلون الصدأ، وقبعة صغيرة من القماش ذات حافة من البلاستيك الأخضر، وكان حين يتكلم تبدو من شفتيه حركة غريبة وكأنه يأكل طعامًا ساخنًا جدًّا.

وجلس الثلاثة يتحادثون ويضحكون أمام البار، وحينئذ دخل هاري فقالت زوجة السائح الطويل:

- أليس رائعًا؟ هذا هو الرجل الذي أريده.

وقال هاري لفريدي: هل أستطيع التحدث معك؟

فردت زوجة السائح الطويل:

- بالتأكيد.. هيا ابدأ وقل ما تريد.

فصاح فيها هاري:

- اسكتي أنت أيتها الوقحة.. تعال إلى المكتب الخلفي يا فريدي.

وفي المكتب الخلفي جلس «فم النحلة» ينتظر إلى جوار منضدة، وقال لهاري حين رآه: هاللو أيها الولد الضخم..

فقال له هاري: اسكت..

بينما تدخل فريدي قائلًا:

- اسمع.. أوقف هذا السباب.. أنت لا تستطيع أن تستمر على هذا المنوال، إنك لا تستطيع أن تسب زبائني هكذا، ولا تستطيع أن تقول لسيدة محترمة إنها وقحة، في مكان محترم كهذا.

فرد عليه هاري: إن كلمة «وقحة» لا تكفي ..

- هل سمعت ما قالته لي؟

- حسنًا.. ولكن لا تسبها بلفظ كهذا في مواجهتها.

- وهو كذلك.. وأنت هل أحضرت النقود؟

فأجابه «فم النحلة»:

- طبعًا ولم لا أحضر النقود؟ ألم أقل إني سأحضرها؟

- دعنا نرها إذن..

فناولها له «فم النحلة».. وعد هاري عشر أوراق من فئة المائة دولار، وأربع أوراق من فئة العشرين، ثم قال:

- كان ينبغي أن تكون ألفًا ومائتي دولار.

فرد «فم النحلة»: لقد أخذت عمولتي.

- أخرج باقي النقود..

- كلا..

- أخرجها..

- لا تكن غبيًّا..

- أنت أيها الحقير القصير سيئ الحظ.

وقال «فم النحلة» في هدوء:

- وأنت أيها الثور الضخم، لا تحاول أن تثني ذراعي وتأخذ النقود بالقوة، لأنني لم أحضرها معي..

فتركه هاري وهو يقول: فهمت.. كان ينبغي أن أفكر في هذا.

ثم وجه الحديث إلى فريدي قائلًا:

- اسمع يا فريدي.. أنت تعرفني منذ أمد بعيد، وأنا أعلم أن مركبك يساوي ألفًا ومائتي دولار، وهذا المبلغ ينقص مائة وعشرين

دولارًا، فلتأخذه وكأنك غامرت بالمائة والعشرين دولارًا الباقية، وإيجار المركب.

فرد عليه فريدي:

- وبذلك تصير الخسارة ثلاثمائة وعشرين دولارًا.

كان المبلغ الناقص أكبر من أن يغامر به، وتصبب عرقًا حين فكر في مقدار الخسارة..

- لديَّ السيارة والراديو والمنزل، وهذه جميعًا تساوي الفرق.

وقال «فم النحلة»:

- أستطيع أن أكتب اتفاقًا بشأن هذا الموضوع.

فرد عليه فريدي: لا أريد كتابة اتفاقات.

وتصبب العرق منه مرة ثانية، وتردد صوته وهو يقول:

- حسنًا.. سأغامر بهذا الفرق، ولكن أرجوك بحق الإله، أن تحافظ على المركب.. هل ستفعل يا هاري؟

- سأحافظ عليه كما لو كان مركبي.

- ولكن مركبك فُقِد..

قالها فريدي وهو لا يزال يتصبب عرقًا، وتضاعفت آلامه، حين عبرت بذهنه هذه الفكرة.

- سأحافظ عليه.. لا تخش شيئًا..

وقال فريدي: سأودع النقود ضمن حسابي في البنك..

ونظر هاري إلى «فم النحلة» وقال وهو يبتسم:

- هذا أحسن مكان للاحتفاظ بها..

وسمعوا صوتًا ينادي من الخارج: يا عامل البار..

فقال هاري: إنهم ينادونك..

وعاد الصوت مرة أخرى ينادي: يا عامل البار..

فخرج فريدي، وسمع هاري الصوت يقول: ذلك الرجل أهانني.

ولكن هاري كان يتحدث مع «فم النحلة» ويقول له:

- سأرابط على رصيف الميناء أمام الشارع..

- حسنًا..

- هذا كل ما في الأمر..

- حسنًا أيتها الطلقة الضخمة..

- لا تثرني..

- كما تشاء..

- سأكون هناك من الساعة الرابعة فصاعدًا..

- هل تريد شيئًا آخر؟..

- ينبغي أن يرغموني على الذهاب بالقوة.. هل فهمت؟.. فأنا لا أعلم شيئًا عن الموضوع، لقد كنت أصلح الآلات فحسب، وليس

معي على ظهر المركب ما يوحي بأنني سأقوم برحلة، لقد استأجرته من فريدي لأؤجره لهواة الصيد، وعليهم أن يهددوني ببندقيتهم لأقوده، وعليهم هم أن يقطعوا حبل المرساة.

– وماذا بشأن فريدي؟.. أنت لم تستأجر المركب لتصطاد له.

– سأخبر فريدي بكل شيء..

– يحسن بك ألا تفعل.

– بل سأفعل.

– إنك أحمق..

– اسمع.. لقد اشتغلت مع فريدي في عدة أعمال من أيام الحرب، وكنا شركاء معًا مرتين، ولم يحدث بيننا أي خلاف، وأنت تعرف تفاهة المبلغ الذي أعطيته له، كما أنه لا يوجد في كل هذه البلدة من أثق به سواه، ولذلك فسأخبره بأمر الرحلة.

– أنا شخصيًّا لا أثق بأحد...

– أجل أنت لا تثق بأحد، خاصة بعد التجارب المؤلمة التي خدعت فيها نفسك.

– حسنًا.. دعني أذهب.

– اذهب وقابل أصدقاءك.. ولكن قل لي، كيف سيكون موقفك أنت مع السلطات؟

– سأقول إنهم كوبيون، قابلتهم في الطريق، وكان أحدهم يريد

صرف شيك حل أجله فأرشدتهم إلى البنك.. ما الخطأ في هذا؟

- ولم تلاحظ فيهم شيئًا غريبًا؟

- كلا.. وسأطلب منهم أن يقابلوني في البنك.

- ومن سيقود السيارة؟

- سنستعمل «تاكسي».

- ومن سيظنهم السائق! عازفي كمان؟

- سنستأجر سائقًا لا يفكر، والبلدة حافلة بمن لا يستطيعون التفكير.. ما رأيك في هاي روز؟

- إنه ولد طيب، ولكنه ثرثار.

- سأجعلهم يخرسونه.

- انتق واحدًا ليس له أطفال..

- جميعهم لديهم أطفال.. هل رأيت قط سائق «تاكسي» بغير أطفال؟

- أنت فأر حقير..

فرد عليه «فم النحلة» قائلًا:

- حسنًا.. ولكني لم أقتل أحدًا مثل بعض الناس!!

- ولن تقتل أحدًا كذلك.. ها، دعنا نخرج من هنا، فمجرد وجودي معك يشعرني بالاشمئزاز.

- ربما لأنك تشعر الناس بالاشمئزاز منك.

فقال هاري: حسنًا.. سأذهب لأتناول شرابًا.

في الخارج كان السياح الثلاثة يجلسون على مقاعد البار العالية، وحين اتجه هاري إلى البار، أدارت المرأة وجهها ناحية أخرى علامة على الاحتقار، وسأله فريدي: ماذا تريد أن تشرب؟

- فسأله هاري: أي نوع تشرب السيدة؟

- شراب كوبا الحرة.

- إذن أعطني ويسكي.

ومال السائح الطويل النحيل ذو النظارة السميكة العدسات تجاه هاري، وقال: قل لي ، ما غرضك من التحدث إلى زوجتي بمثل هذه اللهجة؟

فتأمله هاري من أعلى إلى أسفل، ثم قال لفريدي:

- ما نوع هذا المكان الذي تديره؟ ولِمَ يجمع أمثال هؤلاء الناس؟

فسأله الرجل الطويل منفعلًا:

- ماذا في الأمر؟

وأجابه هاري: تقبل الأمور ببساطة..

- أنت لا تستطيع أن تتشاجر معي بتلك الطريقة.

ورد عليه هاري: اسمع.. لقد جئت إلى هنا بحثًا عن الصحة

والمتعة، أليس كذلك؟ إذن تقبل الأمور ببساطة..

ثم خرج، وقال السائح الطويل:

- أعتقد أنه كان ينبغي عليَّ ضربه، ألا تعتقدين هذا يا عزيزتي؟

فردت عليه زوجته قائلة: كم أتمنى لو كنت رجلًا؟

فقال الرجل ذو القبعة ذات الحافة الخضراء وهو يشرب جعته:

- كنت ستؤدين أعمالًا خطيرة، وأنت بهذا الجسم؟

فسأله الرجل الطويل: ماذا قلت؟

- قلت إنك تستطيع أن تبحث عن اسمه وعنوانه، وتكتب له خطابًا تقول له فيه رأيك عنه.

- قل لي، ما اسمك، وماذا تفيد من مضايقتي؟

- فلتطلق عليَّ اسم البروفيسور ماك ولسي.

ورد عليه الرجل الطويل:

- واسمي لوتون.. وأشتغل بالكتابة.

فقال بروفيسور ماك ولسي:

- إنني سعيد بلقائك.. ولكن هل تشتغل بالكتابة عادة؟

فالتفت الرجل الطويل حوله وقال:

- دعينا نغادر هذا المكان يا عزيزتي، فكل الموجودين هنا إما فاقدو الأخلاق أو أغبياء.

وقال بروفيسور ماك ولسي:

- إنه مكان غريب، ولكنه في الواقع ساحر.. إنهم يسمون هذه البقعة جبل طارق أمريكا، وهو يبعد عن القاهرة بثلاثمائة وخمسة وسبعين ميلًا، ولكني لم أر من هذه البقعة سوى هذا المقهى حتى الآن.. وهو مكان بديع في الواقع.

وردت عليه الزوجة قائلة:

- إنني أرى أنك أستاذ فعلًا.. هل تعلم أنني بدأت أميل إليك.

فأجابها البروفيسور:

- وأنا أميل إليك أيضًا يا عزيزتي.. ولكن عليَّ أن أنصرف الآن..

ونهض، ثم ذهب ليبحث عن دراجته، وبعد برهة قال الرجل الطويل:

- كل من هنا أغبياء، هل نتناول كأسًا أخرى يا عزيزتي؟

فأجابته الزوجة: إنني أميل إلى البروفيسور، فأخلاقه لطيفة.

- وذلك الشخص الآخر؟

- أوه.. إن له وجهًا جميلًا مثل وجوه التتار.. كم كنت أتمنى لو لم يهني.. إن وجهه يشبه جنكيز خان، أوه، إنه ضخم جدًّا.

فقال زوجها: ولكنه بذراع واحدة.

- لم ألاحظ هذا.. هل نتناول كأسًا أخرى؟ إنني أعجب من

سيكون القادم التالي؟

فرد زوجها: ربما يكون تيمورلنك..

فقالت له زوجته في سخرية:

- أوه.. إذن فأنت مثقف! ولكن بالنسبة لي ففي ذلك الجنكيز خان الكفاية، ثم ماذا بشأن البروفيسور؟

فرد لوتون الزوج قائلًا: لا أدري يا عزيزتي..

- ولكنه كان لطيفًا..

- ربما تقابلينه مرة ثانية.

فتدخل فريدي قائلًا:

- ستجدينه هنا في أي وقت تأتين إلى هذا المكان، فهو يعيش في هذا المنطقة، إنه هنا منذ أسبوعين.

- ومن ذلك الشخص الثاني، ذلك الذي كان يتكلم بمنتهى الوقاحة؟

- من هو؟.. أوه.. إنه صديق من هذه الناحية.

- وماذا يشتغل؟

فأجابها فريدي: أي عمل، ولكنه في الأصل صياد.

- وكيف فقد ذراعه؟

- لا أعلم، ولكنه أصيب بطريقة ما..

فقالت الزوجة: آه.. ولكنه جميل.

فضحك فريدي وهو يقول: لقد سمعتهم يطلقون عليه أوصافًا كثيرة، ولكني لم أسمع أحدًا قط يصفه بالجمال.

- أنتم أغبياء يا معشر الرجال.. إن هذا الرجل فتى أحلامي!

فرد فريدي: إنه فتى الأحلام المزعجة!

وطوال ذلك الوقت كان الكاتب يجلس بعيدًا، وفي عينيه نظرة غبية كانت تزول حين يتطلع إلى زوجته في إعجاب، وحينئذ دخل ألبرت وقال:

- أين هاري؟

- هناك على رصيف الميناء...

- شكرًا..

ثم خرج.. وبقيت الزوجة وزوجها الكاتب جالسين، بينما وقف فريدي قلقًا بشأن مركبه، وأحس بالألم يدب في ساقيه من أثر الوقوف طويلًا أمام البار، ونظر إلى المرأة، وتساءل أي نوع من الرجال يمكنه أن يتزوج مثل هذه المرأة ويعيش معها؟ هل يستطيع أن يعيش معها حتى لو كانت عيناه مغمضتين؟.. ولكنهما كانا لا يزالان يشربان كوكتيلًا.. وهذا النوع من الشراب غال، وهذا طبعًا في مصلحته.

حينئذ دخل المقهى رجل ذو شعر في لون الرمال، وجسد ممشوق، يرتدي قميصًا مخططًا يرتديه صيادو السمك، وبنطلونًا

كاكيًّا قصيرًا، ومعه فتاة سمراء في غاية الجمال، ترتدي جاكتة رقيقة من الصوف الأبيض، وجونلة واسعة زرقاء..

وصاح لوتون وهو يقف:

- أليس هذا ريتشارد جوردون مع الجميلة مس هيلين؟

وقال ريتشارد جوردون:

- هاللو، لوتون.. هل رأيت أستاذًا سكيرًا يتجول في هذا الناحية؟

فأجابه فريدي: لقد انصرف منذ هنيهة..

وسأل ريتشارد جوردون زوجته:

- هل تريدين فيرموث يا حبيبتي؟

فأجابته: إذا سمحت، ثم حيت آل لوتون، وقالت لفريدي:

- فريدي اجعل شرابي مقدارين من الفيرموث الفرنسي مع مقدار من الإيطالي.

ثم جلست على أحد المقاعد العالية وأخذت تتطلع إلى الشارع، ونظر إليها فريدي في إعجاب: إنها أجمل أجنبية جاءت إلى كي وست هذا الشتاء، إنها أجمل، حتى من مسز برادلي الشهيرة، فمسز برادلي قد سمنت قليلًا، أما هذه فهي رائعة.. وأخذ فريدي يتطلع إلى يدها السمراء الممسكة بالكأس.

وسأل لوتون.. ريتشارد جوردون:

- كيف حال العمل؟

فرد جوردون:

- على ما يرام.. وكيف حال عملك أنت؟

فأجابته مسز لوتون:

- إن جيمس لا يشتغل.. إنه يشرب فقط..

وسأله لوتون:

- قل لي.. من يكون هذا البروفيسور ماك ولسي؟

- إنه أستاذ في الاقتصاديات على ما أعتقد.. وهو صديق هيلين.

فقالت هيلين جوردون: إنني أميل إليه.

وقالت مسز لوتون: وأنا أيضا أميل إليه..

فقالت هيلين جوردون في سعادة:

- لقد ملت إليه قبلك.

حينئذ ردت عليها مسز لوتون قائلة:

- أوه.. إذن في استطاعتك أن تأخذيه، فأنتن معشر الفتيات الصغيرات الجميلات في إمكانكن الحصول على ما تشتهين..

وهنا قال ريتشارد جوردون:

- سأتناول كأسًا أخرى من الفيرموث..

ثم وجه الحديث لآل لوتون قائلًا: ألا تريدان شرابًا؟

فقال لوتون: ولم لا؟ ولكن قل لي، هل ستذهب إلى حفل آل برادلي غدًا؟..

وردت عليه هيلين جوردون قائلة: طبعًا سيذهب..

وقال ريتشاردن جوردون:

- أنت تعلمين أنني أميل إلى مسز برادلي، فهي تستهويني كامرأة وكظاهرة اجتماعية..

وسألته هيلين:

- وهل يتزوج الرجال ظواهر اجتماعية؟

فرد عليها ريتشارد جوردون:

- لا تقولي كلامًا فارغًا..

وتدخلت مسز لوتون فسألتها:

- اسمعي.. كان ينبغي عليك أن تري الرجل الذي كان هنا منذ قليل، والذي سبني أنا وجيمس.. إنه مرعب.

فقال لوتون:

- كان يتحتم عليَّ أن أضربه..

وهنا قالت هيلين جوردون:

- إنني ذاهبة إلى البيت.. هل ستأتي معي يا ديك؟

فأجابها ريتشارد جوردون:

- أعتقد أنني سأقوم بجولة في البلدة بعض الوقت..

- حسنًا..

وتصور فريدي أنها توشك على البكاء، وتمنى ألا يتم هذا في محله..

وقال لها ريتشارد جوردون:

- سأعود مبكرًا..

فردت عليه قائلة:

- لا تزعج نفسك بهذا..

ثم خرجت.. لم تبك، ولم تجد أيضًا جون ماك ولسي.

* * *

الفصل الخامس عشر

عودة ألبرت

قاد هاري مورجان سيارته على رصيف الميناء.. واتجه إلى المركب. ثم توقف وتطلع حواليه، وحين لم يجد أحدًا، رفع مقعد السيارة الأمامي، وأخرج البندقية من جرابها الملطخ بالزيت، وقذف بها في قمرة المركب. ثم نزل هو إلى المركب، ورفع غطاء علبة الآلات ووضع بندقيته السريعة الطلقات بجرابها تحت الآلات بعيدًا عن الأنظار. ثم فتح صمامات الوقود، وأدار المحركين، وبعد دقيقتين كان المحرك الأول يصدر صوتًا منتظمًا، ويدور في سهولة ويسر.. أما المحرك الثاني فلم يدر، واتضح له أن به شمعتي احتراق لا تعملان، وبحث عن اثنتين جديدتين، فلم يجد. وقال لنفسه: «ينبغي إحضار شموع احتراق، وتعبئة المركب بالوقود».

ونزل إلى أسفل، حيث غرفة الآلات.. وهناك أخرج البندقية من جرابها، ثم ثبت إليها خزانة الرصاص. وهيأ مكانًا علق فيه البندقية تحت أرضية القمرة، وفي متناول يده اليسرى فوق المحرك مباشرة.

وتدلت البندقية في موضعها الجديد تتأرجح، لو ركع على ركبتيه بين المحركين، فسيكون في استطاعته مد يده لالتقاط البندقية، كان عليه أن يؤدي حركتين اثنتين لتصير البندقية في يده: الأولى، أن يرفع سيرها الجلدي من على الخطاف، والثانية أن يجذب البندقية نفسها إلى أعلى. وأجرى تجربة، فوجد البندقية قد صارت في يده بمنتهى السهولة. وحرك الرافعة الصغيرة ليحول البندقية من شبه أوتوماتيكية إلى أوتوماتيكية كاملة، واطمأن إلى أن مسمار الأمان في مكانه. وبعد ذلك علقها ثانية في مكانها مرة أخرى. ولم يستطع تصور المكان الذي سيحتفظ فيه بخزانات الرصاص الأخرى. وهكذا تركها في الجراب تحت برميل وقود بأسفل، بحيث يمكنه الوصول إليها بسهولة، وقال لنفسه: «باستطاعتي بعد أن نبدأ السير في طريقنا أن أنزل إلى أسفل، وأضع خزانتين في جيوبي»..

وبعد أن انتهى من هذه العملية، وانتصب واقفًا.. كان الوقت أصيلًا بديعًا رائقًا، يشعر الإنسان بالبهجة والدفء، وكانت هناك نسمة شمالية خفيفة. وتطلع إلى الميناء.. كان الجزر قد بدأ ينحسر، وهناك قارب صيد أخضر اللون يستدير متجهًا إلى حلقة السمك ويقوده زنجي. كان منظر المياه والريح الخفيفة والجزيرة الرملية

وطيور البحر والأسماك التي تقفز هنا وهناك، تبعث في نفسه البهجة. وفجأة رأى ألبرت واقفًا على الرصيف، وهو يقول له: «استمع إليَّ يا هاري، أتمنى أن تأخذني معك».

– ماذا حدث لك الآن؟

– إنهم ينوون أن يجعلونا نشتغل في الترحيلة ثلاثة أيام فقط. لقد سمعت هذا النبأ صباح اليوم، ولذا ينبغي عليَّ أن أقوم بعمل ما أحصل منه على بعض النقود.

وفكر لحظة، ثم قال: «حسنًا».

وأجاب ألبرت: هذه طيبة منك، فقد كنت أخشى الذهاب إلى البيت ومقابلة زوجتي، فقد صبت عليَّ نقمتها ظهر اليوم.

وسأله هاري في مرح: ماذا حدث لزوجتك العجوز؟ لم لا تصفعها؟

فرد عليه ألبرت: لتصفعها أنت، فإني أود أن أسمع ما تقول حينئذ.. إنها امرأة سليطة.

– اسمع يا آل.. خذ سيارتي وشمعة الاحتراق هذه، ثم اذهب إلى مخزن هاردوير البحري واشتر منه ست شمعات مثلها. وبعدئذ اشتر قطعة ثلج بعشرين سنتًا، ونصف دستة من السمك البوري. وأحضر علبتين من القهوة، وأربع علب من اللحم المحفوظ، ورغيفين من الخبز، وبعض السكر، وعلبتين من اللبن المركز. وتوقف عند محطة

سنكلير، وقل لهم أن يحضروا إلى هنا مائة وخمسين جالونًا من الوقود. ثم عد بعد ذلك بأقصى سرعة، وغيّر شمعتي الاحتراق رقم أربعة، ورقم اثنين. وقل لهم إنني سأعود لدفع ثمن الوقود، وبإمكانهم الانتظار أو البحث عني في مقهى فريدي.. أتستطيع تذكر كل ما قلت لك؟ فسنأخذ غدًا بعض الأفراد لصيد السمك.

فقال ألبرت: ولكن الجو بارد جدًّا لصيد السمك.

- ولكن الذين استأجروا المركب يقولون إنه ليس كذلك.

- ألا يستحسن أن أحضر دستة من السمك البوري، فقد تستهلك كمية أكبر من الطعم!!

- حسنًا.. أحضر دستة. ولكن عليك أن تعود إلى هنا في خلال ساعة لتشرف على وضع الوقود.

- ولماذا تريد وضع كل هذا الوقود؟

- ربما يكون خروجنا وعودتنا في وقت مبكر جدًّا، فلا يكون هناك وقت للتموين.

- وما الذي تم في أمر الكوبيين الذين كانوا يريدون الرحيل؟

- لم أسمع منهم شيئًا منذ ذلك الحين.

- كانت عمليتهم صفقة رابحة.

- وهذه أيضا صفقة رابحة.. هيا اذهب..

- وكم سيكون أجري؟

-خمسة دولارات. وإذا كنت لا ترغب في هذا العمل فاتركه.

فقال ألبرت: حسنًا، أي شمعتي احتراق قلت.

فرد عليه هاري: رقم اثنين ورقم أربعة.

وأجاب ألبرت: أعتقد أنني أستطيع تذكر هذا.

ثم ركب السيارة، ودار بها دورة، وبعد ذلك انطلق إلى الطريق. كان في استطاعة هاري، من المكان الذي يقف فيه على ظهر المركب، أن يرى بناية البنك وبوابته الأمامية. كانت أول بناية على رأس الشارع، ولكنه لم يكن يستطيع رؤية المدخل الجانبي وقال في نفسه: «لقد فعلت كل ما أستطيع.. سأذهب الآن للقاء فريدي، ثم أعود وأنتظرهم»..

واستدار إلى اليمين حين ترك رصيف الميناء، وسار في شارع جانبي حتى لا يمر أمام مبنى البنك.

❊ ❊ ❊

الفصل السادس عشر

هل يبوح بالسر؟

وبعد أن وصل إلى المقهى، حاول عبثًا أن يخبر فريدي بالموضوع لم يكن هناك أحد على البار، فجلس على المقعد المرتفع، وأراد أن يصارحه بالحقيقة ولكنه عجز عن النطق. وحين استعاد قدرته على الكلام، تذكر أن فريدي لن يتحمل الخبر.. ربما كان يستطيع تحمل مثل تلك الأنباء في الأيام الغابرة، أما الآن فلا. لم يكن قد تصور أبدًا بشاعة العملية التي هو مُقدم عليها، ولكن حين اعتزم إخبار فريدي تجسدت له الحقيقة، وقال لنفسه: يمكنني البقاء هنا، وبهذا لن يحدث شيء.. يمكننى أن أتناول عدة كؤوس، وبهذا أسكر ولا أستطيع القيام بشيء. ولكن بندقيتي هناك.. ولكن لا أحد يعرف أنها لي، إلا زوجتي. كنت قد اشتريتها من كوبا في إحدى رحلاتي إلى هناك، ولم يدر بأمرها أحد. أجل يمكننى البقاء هنا. ولكن ماذا سيأكل البنات؟ لم يعد لديَّ مركب، ولا معاش، ولست متعلمًا. وماذا

يستطيع رجل بذراع واحدة أن يشتغل؟ ليس لديَّ ما أستغله سوى ذكائي. ويمكنني أن أتناول بضع كؤوس هنا، فيفوت الموعد، وينتهي كل شيء. وخرج من أفكاره، ليقول لفريدي: «أعطني شرابًا».

- بالتأكيد.

يمكنني أن أبيع المنزل أو أؤجره، حتى أجد عملًا ما. ولكن أي نوع من العمل؟ لا يوجد عمل.. بإمكاني أن أذهب الآن إلى البنك، وأوقف العملية.. ولكن لحساب من؟ لم يعد أمامي مجال للاختيار. اللعنة على كل شيء!

وأراد أن يقول لفريدي، حتى يكون هناك من يشاركه سر العملية. ولكنه لم يستطع، فهو يعرف أن فريدي لن يتحمل. لقد أصبح الآن موسرًا.. صحيح أن المحل الآن أثناء النهار خاوٍ، ولكن ما إن يحل الليل حتى يزدحم ويظل رواده حتى الثانية صباحًا.. وفريدي الآن لم يعد يحس بالضائقة المالية. حتمٌ عليَّ أن أفعلها وحدي، مع ذلك المسكين ألبرت. يا إلهي كان يبدو عليه الجوع الشديد، أثناء وقوفه على الرصيف. هناك مئات منهم يفضلون أن يتركوا مِعَدَهم تصرخ على أن يسرقوا.

وتوقف عن التفكير مرة أخرى، ليقول لفريدي:

- اسمع يا فريدي.. أريد ربعين من الشراب.

- من أي نوع؟

- من الباكاردي.

- حسنًا..

- وانزع أنت السدادات. هل تسمح؟ أنت تعرف أنني أردت أن أؤجر المركب لبعض الكوبيين.

- هذا ما قلته لي.

- وأنا لا أدري متى سيبدأون رحلتهم.. ربما الليلة.. لم أعرف بعد.

- إن المركب جاهز في أي وقت.. ولو عبرت الليلة فستستمتع بليلة رائعة.

- لقد قالوا شيئًا عن صيد السمك، عصر اليوم.

- ستجد على ظهره معدات الصيد، هذا إذا لم يكن الحراس قد سرقوها.

- كلا.. إن المعدات ما زالت هناك.

فقال له فريدي: «حسنًا، إذن استمتع برحلتك».

- أشكرك، هل تسمح بإعطائي زجاجة أخرى؟

- من أي نوع؟

- ويسكي.

- كنت أظنك تشرب الباكاردي؟

- سأشرب هذه، إذا شعرت بالبرد أثناء العبور.

فرد عليه فريدي: «سيكون عبورك والريح معك طوال الرحلة.. كنت أتمنى لو أستطيع أنا العبور الليلة».

- ستكون فعلًا ليلة رائعة.. هل لك أن تعطيني زجاجة أخرى؟

وفي تلك اللحظة دخل السائح الطويل وزوجته، فقالت وهي تجلس على المقعد المجاور لهاري.

- أليس هذا رجل أحلامي؟

فنظر إليها نظرة سريعة، ونهض واقفًا وهو يقول لفريدي:

- سأعود يا فريدي.. سأذهب الآن إلى المركب، فقد يرغب هؤلاء الفتية في الخروج للصيد.

وقالت الزوجة: «لا تذهب، أرجوك لا تذهب».

فرد عليها هاري قائلًا: «إنك مضحكة».

ثم خرج. وهناك في الشارع، كان ريتشارد جوردون متجهًا إلى بيت آل برادلي الشتوي الضخم.. وكان يأمل أن تكون المسز برادلي وحدها.. وأكد الأمل لنفسه. كانت المسز برادلي تهوى جمع الكُتَّاب، تمامًا كما تهوى جمع كتبهم، ولكن ريتشارد جوردون لم يكن قد عرف هذا بعد. أما زوجته فكانت تسير على الساحل في طريقها إلى البيت. لم تكن قد عثرت على جون ماك ولسي. ربما تعثر عليه عند المنزل!!

الفصل السابع عشر

رحلة مشئومة

وكان ألبرت يقف على سطح المركب، بعد أن تمت تعبئته بالوقود. وحينئذ قال هاري: سأدير الآلات لأرى كيف حال هذين المحركين، ولكن هل نقلت الأشياء التي أحضرتها إلى ظهر المركب؟

- أجل..

- إذن اقطع بعض الطعم.

- هل تريد الطعم قطعًا كبيرة؟

- أجل.. قطعًا لصيد سمك التاريون.

كان ألبرت جالسًا عند مؤخرة المركب، يقوم بقطع الطعم، بينما كان هاري جالسًا إلى عجلة القيادة، وقد أدار المحركين ليبعث فيهما الحرارة، حين سمع ضوضاء مثل تلك التي تصدر عن ماسورة عادم سيارة. وتطلع ناحية الشارع، فرأى رجلًا يخرج من البنك. كان

يجري وهو يحمل بندقية في يده.. ثم اختفى عن الأنظار. وبعدئذ خرج رجلان آخران من البنك، وهما يحملان حقيبتين صغيرتين من الجلد، ويحمل كل منهما بندقية في يده، وجرى الرجلان في نفس اتجاه زميلهما. أما الرجل الرابع، وكان أضخم، فقد خرج من الباب وهو يلتفت حواليه، ويشرع أمامه بندقية سريعة الطلقات.. وحين أغلق الباب وراءه، انطلقت من داخل البنك صفارة الإنذار في صرخة حادة طويلة، ورأى هاري الرصاص يتدافع من البندقية وسمع صوت انطلاقه ضئيلًا، بالنسبة لصوت صافرة الإنذار. واستدار الرجل، وأخذ يجري، ثم توقف برهة ليطلق طلقة أخيرة على باب البنك. وبينما كان ألبرت واقفًا عند مؤخرة المركب وهو يصيح في ألم: «يا إلهي، إنهم يسرقون البنك.. ماذا نستطيع أن نفعل؟»، سمع هاري التاكسي الفورد، وهو يخرج من عند ناصية الشارع، ثم رآه يندفع إلى رصيف الميناء..

كان بداخله ثلاثة من الكوبيين يجلسون في المؤخرة، والرابع يجلس بجوار السائق. وصاح أحدهم بالإسبانية: «أين المركب؟»، فرد عليه آخر:

«هناك، أيها الغبي».

– ليس ذلك مركبنا.

– ولكن ها هو ذا الكابتن عليه.

– هيا.. هيا بحق السماء.

وصرخ الكوبي في السائق قائلًا: «اخرج من السيارة.. ارفع ذراعيك إلى أعلى».

وبينما كان السائق يقف بجوار السيارة، أدخل الكوبي سكينًا خلف حزام السائق، ثم جذبها إليه، فانقطع حزام السائق، وسقط بنطلونه حتى ركبتيه تقريبًا. فجذب البنطلون إلى أسفل، وهو يقول: «قف ساكنًا»، وألقى الكوبيان اللذان كانا يحملان الحقيبتين بهما داخل القمرة، ثم قفزوا جميعًا متدافعين إلى ظهر المركب..

وقال أحدهم: «اجعله يسير» ودفع الرجل الضخم بندقيته في ظهر هاري. ثم قال: هيا يا كابتن فلنبحر.

ورد عليه هاري: «اهدأ، ووجه هذه البندقية إلى شيء آخر».

فصاح الرجل الضخم في ألبرت: «أنت.. هناك.. ارفع حبال المرسى».

وقال ألبرت لهاري: « انتظر لحظة، لا تبحر بالمركب.. فهؤلاء هم الذين سطوا على البنك».

وحينئذ استدار الكوبي الضخم، وصوب بندقيته نحو صدر ألبرت.

فصاح ألبرت: «أنت.. لا تفعل.. لا تفعل».

كان إطلاق الرصاص من مسافة قريبة جدًّا إلى صدره، بحيث كان صوت الرصاصات الثلاث، كأنه صوت ثلاث صفعات. وانزلق

ألبرت إلى أسفل على ركبتيه، وعيناه شديدتا الاتساع، وفمه فاغر. كان يبدو عليه وكأنه ما زال يقول «لا تفعل».

وقال لي الكوبي الضخم: «أنت لست في حاجة إلى زميل، أنت أيها الوغد ذو الذراع الواحدة» ثم قال بالإسبانية: «اقطعوا حبال المرسى بتلك السكين» وبعد ذلك بالإنجليزية: «هيا.. فلنبحر» ثم تكلم بالإسبانية:

«هددوه ببندقية في ظهره» ثم بالإنجليزية، «هيا.. سر بالمركب وإلا ألهبت رأسك بالرصاص».

فرد عليه هاري: «سنبحر حالًا».

كان أحد الكوبيين الذين يشبه وجهاهما وجوه الهنود، يمسك بمسدس يصوبه إلى الجانب الذي كان يوجد فيه ذراعه المقطوعة، وكانت ماسورة المسدس تكاد تلمس الخطاف المثبت في بقية ذراعه.

وبينما أخذ يستدير بالمركب خارجًا من المرفأ، وهو يدير عجلة القيادة بيده اليمنى، تطلع إلى مؤخرة المركب ليرى هل تجاوز الرصيف، فرأى ألبرت راكعًا على ركبتيه عند المؤخرة، وقد مال رأسه إلى الجنب. وعلى الرصيف كان التاكسي لا يزال واقفًا، وسائقه البدين في ملابسه الداخلية فقط، وقد تدلى بنطلونه حول عقبيه، وذراعاه مرفوعتان إلى أعلى، وهو فاغر فاه تمامًا مثل ألبرت، وحتى هذه اللحظة لم يكن قد ظهر أي شخص في الشارع.

أخذت دعائم الرصيف الخشبية تهتز، بينما كان المركب يخرج من الحوض، ثم قاده في القناة مبتعدًا عن طريق المنارة.

وقال الكوبي: «هيا.. زد السرعة، لنكسب بعض الوقت» ورد عليه هاري: «ابعد ذلك السلاح عني» كان يفكر: بإمكاني أن أقوده إلى بار كروفيش وأسلمهم هناك، ولكن لا شك أن هذا الكوبي سيقتلني.

وقال الكوبي الضخم: «اجعله يسرع» ثم بالإسبانية: «فلينبطح كل منكم أرضًا، واحموا ظهر الكابتن». انبطح هو نفسه أرضًا عند مؤخرة المركب، وهو يسحب جسد ألبرت معه إلى الأرضية. كان الثلاثة الآخرون حينئذ قد انبطحوا جميعهم على أرض القمرة، بينما جلس هاري على المقعد المواجه لعجلة القيادة. كان ينظر أمامه، ويقود المركب خارج القناة. وأصبح الآن بعيدًا عن الحوض العميق.. جاوز القلعة، وجاوز إرشاد المراكب الضوئي، وتطلع إلى الخلف، كان الكوبي الضخم قد أخرج من جيبه صندوقًا من الرصاص، وأخذ يثبت الكبسولات في الطلقات. كانت البندقية راقدة إلى جواره، وهو يقوم بعملية تثبيت الكبسولات، ويتطلع إلى الخلف. كان الجميع ينظرون إلى الخلف، ماعدا ذلك الذي كان يراقبه، وكان أحد الاثنين ذوي الوجهين الهنديين. وأشار إليه الفتى أن ينظر أمامه. لم يكن أي قارب بدأ في مطاردتهم حتى الآن.. كانت الآلات تدور بيسر وقوة، وكانوا يسيرون مع الجزر.

وأخذ هاري يفكر: هناك قاربان سريعان يستطيعان اللحاق بنا..

أحدهما، قارب راي، الذي ينقل البريد من ميتاكومب. ولكن أين الثاني؟.. لقد رأيته منذ يومين. ثم تذكر أن هناك قاربين سريعين آخرين أيضًا. ولكن أحدهما ملك الحكومة، وهو الآن في المضايق. والثانى موجود في جاريسون بايت. على أي بعد نحن الآن؟ وتطلع إلى الوراء، كانت القلعة قد اختفت الآن تمامًا، وبدأ يظهر مكتب البريد القديم، وبناء الفندق أصفر اللون. وبعد برهة، نظر مرة ثانية.. كانت المنارة تبدو سامقة فوق أسطح المنازل المتراجعة إلى الخلف. وفكر: لقد صاروا الآن على بعد أربعة أميال على الأقل، ولكن هاهم أولاء قد بدأوا يطاردونه.

كان هناك قاربا صيد أبيضان يستديران خارجين ليتابعاه. ولكنهما لن يستطيعا أن يزيدا سرعتهما حتى إلى عشرة أميال في الساعة..

وأخذ الكوبيون يتحدثون بالإسبانية، ثم قال أضخمهم، وهو يتطلع إلى الوراء: ما سرعتك يا كابتن؟

ورد عليه هاري: حوالي اثني عشر ميلًا.

- وما أقصى سرعة لتلك القوارب؟

- ربما عشرة أميال في الساعة.

كان كل الكوبيين الذين على المركب، يراقبون القوارب المطاردة.. وحتى ذلك الذي كان مفروضًا أن يحميه، أخذ هو الآخر يراقب القوارب.

وفكر هاري: ماذا أستطيع أن أفعل؟ لا شيء حتى الآن.. كان القاربان الأبيضان لا يتقدمان..

وقال الفتى ذو اللهجة الرقيقة: انظر إلى هذا يا روبرتو.

- ماذا؟

وعلى مسافة بعيدة جدًّا، كان هناك رذاذ يرتفع على سطح الماء، وبالكاد يستطيع المرء أن يراه.

وقال الفتى ذو اللهجة الرقيقة: إنهم يطلقون علينا الرصاص.

فرد عليه الرجل ذو الوجه الضخم قائلًا:

- يا إلهي، من مسافة ثلاثة أميال؟

وفكر هاري: «بل أربعة، أربعة أميال كاملة».

كان في استطاعة هاري أن يرى رذاذ الماء يتناثر فوق صفحة البحر الهادئ، ولكنه لم يكن يستطيع سماع الطلقات.

وسأله الرجل ذو الوجه الضخم، وهو يتطلع من فوق مؤخرة المركب:

ما نوع قارب الحكومة الموجود هنا؟

- قارب خفر السواحل المعتاد.

- وما أقصى سرعة له؟

- ربما اثنا عشر ميلًا.

- إذن فقد أصبحنا الآن في أمان؟

ولم يتفوه هاري بكلمة..كان موجهًا كل عنايته للخروج من المياه الضحلة، والابتعاد عن ساندلي.. ففي خلال عشر دقائق سيكونون قد تجاوزوا تلك الشعاب المرجانية الخطرة..

- ماذا بك؟.. ألا تستطيع الكلام؟

- ماذا سألتني؟

- هل يستطيع شيء أن يلحق بنا الآن؟

فأجابه هاري: طائرة خفر السواحل!

وتدخل الفتى ذو اللهجة الرقيقة قائلًا:

- لقد قطعنا سلك التليفون، قبل أن ندخل البلدة.

فسأله هاري: وهل قطعت اللاسلكي؟

- هل تعتقد أن الطائرة تستطيع الوصول إلى هنا؟

ورد عليه هاري: أنتم معرضون لهذا الخطر، حتى يحل الظلام.

وسأله روبرتو، ذو الوجه الضخم: ما رأيك يا كابتن؟

فلم يجب هاري...

- هيا قل لي..ما رأيك أنت؟

وتوجه هاري بسؤاله إلى ذي اللهجة الرقيقة، الذي كان يقف حينئذ إلى جواره يتطلع إلى البوصلة، وقال:

- لماذا تركت هذا الكلب يقتل زميلي؟

فصاح روبرتو: «اخرس، وإلا قتلتك أنت أيضًا».

وسأل هاري الرجل ذا اللهجة الرقيقة:

- كم المبلغ الذي حصلتم عليه؟

- لا ندري، فنحن لم نحصه بعد.. وعلى أية حال، فهو ليس ملكًا لنا، وإنما هو ملك لهدفنا الكبير.

- أعتقد أنه كذلك!

قالها هاري، وكان قد اجتاز المنارة الآن، ووجه المركب بزاوية مقدارها ٢٢٥ درجة، ليسير في طريقه المعتاد إلى كوبا..

- وهل قتلتم زميلي من أجل نفس الهدف أيضًا؟

فأجابه الفتى: إنني آسف جدًّا لذلك..

ورد عليه هاري: لا تحاول الاعتذار.

فقال الفتى بلهجة هادئة:

- هذا الرجل، روبرتو، شرير.. فهو يعتقد أن القتل ممتع. وهو يقتل من أجل هدف نبيل.. من أجل أنبل الأهداف.

وتطلع إلى الخلف، حيث كان روبرتو جالسًا في أحد كراسي الصيد، عند المؤخرة، وقد وضع البندقية على حجره، وهو ينظر إلى الوراء، حيث كان القاربان الأبيضان قد صارا أصغر حجمًا.

وصاح به روبرتو من المؤخرة: ماذا عندك للشراب؟

فأجابه هاري: لا شيء.

فرد روبرتو: إذن سأتناول شرابي الخاص.

كان أحد الكوبيين راقدًا على كرسي من تلك الكراسي المثبتة فوق الخزانات. وكان يبدو عليه أنه قد أصيب فعلًا بدوار البحر. أما الآخر، فكان لا يزال يقاوم الدوار.

وتطلع هاري إلى الوراء، فرأى قاربًا رصاصي اللون، قد خرج من القلعة، وتقدم القاربين الأبيضين.. وفكر: «ها هو ذا قارب خفر السواحل.. إنه قارب بديع».

وسأله الفتى ذو اللهجة الرقيقة: هل تعتقد أن الطائرة ستأتي؟

فأجابه هاري:

- ستظلم الدنيا في خلال نصف ساعة.

ثم استقر على كرسي القيادة، وتابع كلامه قائلًا:

- ماذا تنوي أن تفعل؟.. أن تقتلني؟

فرد عليه الفتى: أنا لا أرغب في ذلك.. فأنا أكره القتل.

وسأله روبرتو، الذي كان جالسًا الآن، وفي يده زجاجة ويسكي:

- ماذا تفعل؟ أتكون صداقة مع الكابتن؟ ماذا تريد؟.. أن تتغدى على مائدته؟

وقال هاري للفتى:

– أمسك عجلة القيادة.. هل ترى زاوية السير؟ إنها مائتان وخمس وعشرون، حافظ عليها.

ونهض من على مقعد القيادة، ثم ذهب إلى المؤخرة، وقال لروبرتو:

قدم لي شرابًا.. فرغم أن قارب خفر السواحل هناك، إلا أنه لن يستطيع اللحاق بنا.

كان قد ترك جانبًا، الغضب والحقد والغطرسة، وأخذ يفكر في وضع خطة.. وقال روبرتو ضاحكًا:

– من المؤكد أنه لن يلحق بنا.. انظر إلى أولئك الأطفال المصابين بدوار البحر.

– ماذا كنت تقول؟ تريد شرابًا؟ هل لك رغبات أخرى يا كابتن؟

فأجابه هاري: «إنك طفل صغير».

ثم تناول جرعة كبيرة. وقال روبرتو محتجًّا:

–مهلًا، فهذه الزجاجة هي كل ما لدينا هنا.

ورد عليه هاري: لديَّ بعض الشراب هنا.. كنت أمزح معك.

فقال روبرتو في ريبة: إياك أن تخدعني.

– ولِمَ أحاول خداعك؟

- ماذا لديك من الشراب؟

- باكاردي..

- أحضره هنا..

فقال هاري: «اهدأ.. لماذا تصير عصبيًّا بهذه الصورة؟».

وخطا فوق جسد ألبرت، وهو يسير متجهًا إلى مقدمة المركب.. وحين وصل إلى عجلة القيادة نظر إلى البوصلة. كان الفتى قد انحرف بالمركب حوالي خمس وعشرين درجة، وكان مؤشر البوصلة يتذبذب. وقال هاري لنفسه: «هذا الفتى ليس بحارًا، وهذا يمنحني وقتًا أطول». ثم تطلع إلى خط الماء الذي يشقه المركب. ونظر إلى الوراء.. كانت القوارب قد اختفت عن الأنظار تقريبًا. كان في استطاعته فقط أن يرى قمة أحد صواري الإرسال اللاسلكي عن بعد. كانت اللآلات تدور على أحسن حال.

ودفع هاري رأسه إلى أسفل، ومد يده ليخرج زجاجة باكاردي. ثم ذهب بها إلى المؤخرة.. وهناك تناول منها جرعة، ثم ناولها لروبرتو. وتطلع إلى روبرتو، فشعر بالاشمئزاز يسري في داخله.. وفكر في ذلك الجائع المسكين الذي قُتل، والذي كان يرقد ممددًا أمامه.

وسأله الكوبي ذو الوجه الضخم: ماذا بك؟ هل يخيفك منظره؟

فأجابه هاري: ما رأيك لو قذفنا به إلى البحر؟ ليس من المعقول أن نحمله معنا؟

فرد روبرتو: حسنًا.. إن تفكيرك صائب.

وقال هاري:

- فلترفعه أنت من تحت إبطيه، وسأرفعه أنا من رجليه.. ووضع روبرتو البندقية على حافة مؤخرة المركب وانحنى ليرفع الجسد من كفيه.

وقال: هل تعلم أن أثقل شيء في الدنيا هو جسد الميت؟ هل رفعت جسد رجل ميت من قبل يا كابتن؟

فأجابه هاري:

- كلا.. ولكن هل رفعت أنت جسد امرأة ميتة؟

وجذب روبرتو الجسد إلى حافة المركب عند المؤخرة، ثم قال:

- إنك زميل لطيف.. ما رأيك في شراب؟

فأجابه هاري: «هيا بنا».

وقال روبرتو: اسمع.. إنني آسف لأنني قتلته، ولكني حين أقتلك سيكون أسفي أعظم.

فرد عليه هاري: «لا تتكلم بهذا الأسلوب.. ماذا تبغي من وراء هذا الكلام؟».

فقال روبرتو: هيا.. فلنلق به.

وبينما كانا ينحنيان فوق الجثة، ويرفعانها فوق مؤخرة المركب،

رفس هاري البندقية السريعة الطلقات من فوق الحافة، فسقطت في الماء، في نفس الوقت الذي سقط فيه ألبرت. ولكن بينما دار ألبرت دورتين في فقاقيع الماء المندفعة من حركة مروحة المركب قبل أن يغوص، غاصت البندقية إلى القاع مباشرة.

وقال روبرتو: «هكذا أفضل، أليس كذلك؟ لقد أصبح المركب نظيفًا».

وحينئذ رأى أن البندقية قد اختفت، فصاح:

- أين ذهبت؟ ماذا فعلت بها؟

- فعلت بماذا؟

فقال باللغة الإسبانية من فرط انفعاله: بالبندقية؟

- إني لم أرها..

- لقد قذفت بها من فوق مؤخرة المركب.. والآن، يحتم عليَّ أن أقتلك.. الآن.

فقال هاري:.. اهدأ، ما الذي ستقتلني من أجله، بحق الجحيم؟

وصرخ روبرتو في أحد الكوبيين اللذين كانا مصابين بدوار البحر:

«أعطني بندقية.. أعطني بندقية بسرعة».

ووقف هاري هناك. لم يشعر في حياته قط، بأنه كان أطول أو أرحب صدرًا، منه في تلك اللحظة وهو يحس بالعرق ينساب من

تحت إبطيه، منحدرًا على باقي جسده..

وسمع الكوبي المصاب بدوار البحر يقول بالإسبانية:

– إنك تكثر جدًّا من القتل.. لقد قتلت زميله... وهأنتذا تريد الآن قتل الكابتن نفسه.. من الذي سيعبر بنا البحر حتى كوبا؟

وقال الآخر: اتركه وشأنه الآن. واقتله عندما نتم عبورنا.

فرد عليهما روبرتو:

– لقد قذف بالبندقية سريعة الطلقات من فوق ظهر المركب.

– لقد استولينا على النقود، فلماذا تريد بندقية سريعة الطلقات الآن، إن كوبا فيها الكثير من البنادق سريعة الطلقات.

– إنني أقول لكما، إننا إذا لم نقتله الآن، فإننا نرتكب خطأ.. أعطوني بندقية.

– أوه، اسكت.. أنت مخمور. وفي كل مرة تكون مخمورًا، تتملكك الرغبة في القتل.

وقال هاري: «هل لك في شراب؟» ثم أخذ يتطلع عبر تيار الخليج، حيث كان قرص الشمس المستدير الأحمر يكاد يلمس الماء. واستطرد يقول:

– راقب هذا المنظر البديع: بعد قليل ستبدو الشمس كما لو كانت تحت ماء التيار، وحينذاك سيتحول لون مائه إلى الأخضر الزاهي.

وقال الكوبي ذو الوجه الضخم:

- إلى الجحيم بهذا المنظر. هل تعتقد أنك ربحت شيئًا بفعلتك؟

فأجابه هاري:

- سأحصل لك على بندقية أخرى.. إنها تساوي في كوبا خمسة وأربعين دولارًا فحسب. تقبل الأمر ببساطة، فلم يعد هناك ما تخشى منه، ولم تعد طائرة خفر السواحل بقادرة على المجيء الآن.

فقال روبرتو في انفعال: سأقتلك.. لقد فعلتها عن عمد، لهذا جعلتني أرفع معك تلك الجثة.

ورد عليه هاري بهدوء:

- لا شك أنك تود قتلي.. ولكن من سيتم عملية عبوركم.

- يتحتم عليَّ أن أقتلك الآن.

فقال هاري: تمالك أعصابك.. سأذهب الآن لألقي نظرة على الآلات، ورفع غطاء غرفة الآلات، ثم هبط إلى أسفل، وفحص مواسير التشحيم، والمحركات، ولمس بيده مقبض بندقيته.. وفكر: ليس الآن.. لا ليس الآن.

ولكن ماذا خسر ألبرت بوفاته؟ لقد وفر على زوجته نفقات دفنه.. ذلك الوغد ذو الوجه الضخم.. ذلك الوغد القاتل ذو الوجه الضخم.. يا إلهي، كم أتمنى أن أمحوه الآن من الوجود. ولكن من الأفضل أن أنتظر..

ونهض واقفًا، ثم صعد إلى أعلى، وأغلق باب غرفة الآلات.

وسأل روبرتو: «كيف حالك؟» ووضع يده على الكتف السمينة ونظر إليه الكوبي ذو الوجه الضخم، ولم يقل شيئًا..

فسأله هاري: هل رأيت لون الماء وهو يتحول إلى أخضر؟

فأجابه روبرتو: «فلتذهب إلى الجحيم».

كان مخمورًا، ولكنه كان مرتابًا.. كان كالحيوان الذي يعرف بغريزته أن هناك شيئًا ما بعيدًا عن الصواب.

وقال هاري للفتى الواقف عند عجلة القيادة:

- دعني أتولاها عنك لحظة.. ما اسمك؟

فأجابه الفتى: يمكنك أن تدعوني إميليو.

- انزل إلى أسفل، وستجد شيئًا تأكله. ستجد خبزًا ولحمًا محفوظًا، وبإمكانك أن تعد قهوة إن أردت.

- لا أريد أي شيء.

فرد عليه هاري: «سأعد بعضًا منها، فيما بعد».

وجلس إلى عجلة القيادة، وقد أضاء المصباح الصغير الآن، وأخذ يحدد اتجاه المركب دون عناء في ذلك البحر الهادئ، ثم تطلع إلى الليل الذي بدأ يزحف على المياه.. لم يكن قد أضاء مصابيح المركب الأمامية.

وأخذ يفكر: ستكون ليلة رائعة للعبور.. ليلة رائعة؟ عليَّ أن أعمل، بمجرد أن يختفي آخر أضواء الشفق.. عليَّ أن أتجه بالمركب

شرقًا؛ لأنني لو لم أفعل فستتلألأ أمامنا أنوار هافانا في خلال ساعة أخرى، أو في خلال ساعتين، على أكثر تقدير. وقد يحدث أن يقوم هذا الكلب بقتلي بمجرد أن يرى تلك الأنوار.. لقد كنت محظوظًا حين تمكنت من التخلص من تلك البندقية. كان حظًّا وفيرًا.. إنني أعجب ماذا تتعشى ماري الآن.. أعتقد أنها في غاية القلق الآن، وأعتقد أن قلقها يمنعها من الأكل.. ترى ما مقدار النقود التي سرقها هؤلاء الأوغاد؟ من المضحك أنهم لم يحصوها..

وهذا الوضيع روبرتو، سأجهز عليه الليلة.. سأجهز عليه مهما ترتب على ذلك من نتائج. ورغم تلك فلن يساعد هذا ألبرت المسكين. لقد شعرت بالضيق حين قذفت به في البحر.. لست أدري ما الذي جعلني أفكر في هذا الآن؟

أشعل سيجارة، وأخذ يدخنها في الظلام..

وعاود التفكير: إنني في حالة جيدة.. والأمور تسير في صالحي أكثر مما توقعت. وهذا الفتى، إنه فتى لطيف.. أود لو استطعت التصرف مع الاثنين الآخرين. حسنًا، سأبذل كل ما في وسعي.. المباغتة هي أفضل الطرق، ولكن في هدوء.. فكلما كان التصرف أهدأ، كانت النتائج أفضل.

وسأله الفتى: «هل تريد سندويتشًا؟»

فرد هاري: «شكرًا.. لم لا تعطي واحدًا لزميلك؟»

فأجاب الفتى: «إنه يشرب، وما دام يشرب فهو لن يأكل».

- والآخرين؟..

فقال الفتى: «إنهما مصابان بدوار البحر».

وقال هاري: إنها ليلة رائعة للعبور.

ولاحظ أن الفتى لا يعير البوصلة اهتمامًا.. وهكذا ترك المركب يتجه شرقًا.

فرد عليه الفتى: «كنت سأستمتع به، لولا ما حدث لزميلك».

وقال هاري: «كان زميلًا طيبًا.. هل أصيب أحد في حادث البنك؟».

- المحامي.. ماذا كان اسمه؟ سيمونز؟

- هل قُتل؟..

- أعتقد ذلك..

هذا ما توقعه له هاري. ماذا كان يتوقع «فم النحلة» بحق الجحيم؟

كيف لم يفكر في أن هذا سيحدث له؟ هذا ما ينتج عن التظاهر الكاذب بالقوة، والأناقة . «فم النحلة».. وداعا يا «فم النحلة»، وخرج من أفكاره ليسأل: وكيف قُتل؟

فرد عليه الفتى:

- أعتقد أن باستطاعتك أن تتخيل الموقف.. ولكن هذا مختلف

تمام الاختلاف عن زميلك.. إنني أشعر بالأسى الشديد من أجله، وأنت تعلم أن روبرتو لم يقصد ارتكاب خطأ، ولكن هذا ما حدث، أعتقد أنه كان فتى طيبًا..

وأخذ هاري يحدث نفسه: اسمع ما ينطق به فمي.. قد يتفوه فمي بأي شيء. ولكن ينبغي أن أحاول أن أكتسب صداقة ذلك الفتى، فقد يحدث أن..

وسأله: وأيه ثورة تلك التي تقومون بها الآن؟

فأجابه الفتى:

- نحن الحزب الثوري الوحيد الصادق.. نحن نريد إبعاد جميع الساسة المحترفين، وإبعاد كل صور الاستعمار الأمريكي التي تقيدنا.

نريد أن نبدأ من جديد، ونتيح الفرصة أمام كل إنسان. نريد أن نلغي استعباد الفلاحين، ونوزع مزارع السكر الضخمة على العمال.. ولكننا لسنا حزبيين، إننا وطنيون.

ورفع هاري عينيه عن البوصلة وتطلع إليه.. وسأله:

- وكيف يسير الحال معكم؟

ورد عليه الفتى:

- إننا الآن نجمع الأموال، استعدادًا للمعركة.. من أجل هذا الهدف، نلجأ الآن إلى وسائل لن نستعملها في المستقبل.. ولكن الغاية تبرر الوسيلة.

وقال هاري:

- لا شك أن برنامجكم رائع، ما دمتم ستساعدون العاملين. وإنني مستعد لمعاونتكم لو طلبتم مني أية خدمة محددة.

وقال الفتى: سيساعدنا كثير من الناس.. ولكن بالنسبة للمرحلة الدقيقة التي تمر بها الثورة الآن، فنحن لا نستطيع أن نثق بكل الناس.

واندفع يتكلم بحماس وانفعال شديدين، وهاري يؤيد كل كلامه في حماس مفتعل، وهو يزيد شيئًا فشيئًا من اتجاه المركب إلى الشرق. ثم قال للفتى: فليحالفكم الحظ. هل لك أن تمسك لحظة بعجلة القيادة، لأنى أريد أن أتناول شرابًا.

فأجاب الفتى: بالتأكيد... على أية درجة أوالي السير؟

فرد هاري: مائتان وخمس وعشرون درجة.

كان الظلام قد حل الآن.. وخطا هاري فوق الكوبيين المصابين بدوار البحر، وهما يرقدان على مقعديهما، ثم ذهب إلى المؤخرة، حيث كان روبرتو جالسًا على كرسى الصيد، كانت المياه تتسابق على جانبي المركب في الظلام، وكان روبرتو جالسًا، وقد وضع قدميه على كرسي الصيد الآخر.

وقال له هاري: أعطني جرعة من هذه الزجاجة.

فصاح فيه ذو الوجه الضخم في تثاقل:

- اذهب إلى الجحيم.. هذه زجاجتي.

فقال له هاري: حسنًا.. وذهب ليحضر الزجاجة الأخرى.

وفى أسفل المركب تناول جرعة من الزجاجة التي كان فريدي قد فتحها له..

وقال لنفسه: الآن أنسب الأوقات.. لا معنى للانتظار، فقد قال الفتى كل ما لديه من كلام، والوغد الضخم الوجه مخمور، والاثنان الآخران مصابان بدوار البحر.. يستحسن أن أبدأ الآن.

وتناول جرعة أخرى، وجعله الباكاردى يشعر بالدفء، ولكنه كان لا يزال يشعر بالبرودة والجوع.

عاد للفتى عند عجلة القيادة، وسأله: «هل تريد شرابًا؟»

فرد عليه الفتى: «كلا.. أشكرك.. فأنا لا أشرب».

فقال: سأتناول جرعة.

ثم تناول جرعة كبيرة لم تستطع أن تبعد البرودة التي كانت تزحف داخله، فوضع الزجاجة على أرضية القمرة، ثم قال للفتى:

- احتفظ بسير المركب على هذا المنوال.. سأذهب لألقي نظرة على المحركات.

ورفع غطاء غرفة الآلات، ثم نزل وأغلق الغطاء من الداخل بمزلاج صغير، انحنى فوق المحركات، وتحسس الآلات، والمضخات. وأغلق صمامات التشحيم، ثم نظر من تحت الغطاء.. كان في استطاعته أن يلمس المقعدين اللذين كان يجلس عليهما

الرجلان المصابان بدوار البحر. وكان ظهر الصبي في مواجهته تمامًا، وهو جالس على مقعد القيادة المرتفع، وواضح تمامًا في نور المصباح الصغير، وحين أدار رأسه، استطاع أن يرى روبرتو ممددًا على الكرسي عند المؤخرة، وهو يبدو كشبح.

وأخذ يفكر: في كل خزانة رصاص إحدى وعشرون طلقة، وهذا يعني إطلاق البندقية أربع مرات بسرعة خمس رصاصات في المرة، وهذه أقصى سرعة.. إذن ينبغي أن تكون أصبعي خفيفة على الزناد.

حسنًا فلتذهب أيها الخوف الوقح.. كم أشتاق الآن إلى جرعة من الخمر. لم يعد هناك وقت.. فمد يده اليسرى إلى أعلى، وأنزل البندقية المعلقة، ووضع يده حول دائرة الزناد، ثم دفع مسمار الأمان إلى أعلى بإبهامه، وأخرج البندقية من فتحة غرفة الآلات. وارتكز على حافة الفتحة، وأحكم التصويب على قاع رأس الفتى الذي كان واضحًا في ضوء المصباح الصغير.

أحدثت البندقية لهبًا ضخمًا شق الظلام، وتساقطت الطلقات الفارغة مصطدمة بالغطاء المفتوح وبالآلات. وقبل أن يسقط الفتى من فوق مقعد القيادة، كان هاري قد استدار وأطلق الرصاص على الرجل الذي كان ممددًا على الكرسي الأيسر.. كانت المسافة من القرب، بحيث استطاع هارى أن يشم رائحة ثوب الرجل المحترق ثم استدار وأطلق سيلًا من الرصاص على الرجل الممدد على المقعد الآخر.. حيث كان بدأ يهم بالجلوس ويلتقط مسدسه، وزحف هاري

إلى أسفل، وتطلع ناحية المؤخرة. كان الرجل ذو الوجه الضخم قد اختفى من مقعده. ونظر وراءه، فرأى الفتى يرقد دون حراك، لم يكن هناك أدنى شك في أنه قد انتهى. وكان أحد الرجلين كان قد سقط من على مقعده، بينما كان الثاني ملقى على وجهه بجوار بندقيته.

أخذ هاري يحاول تحديد مكان الرجل ذى الوجه الضخم في الظلام. كان المركب الآن قد أخذ يدور حول نفسه.. وحبس أنفاسه ونظر.. لا شك أنه هو الذي كان هناك عند الركن مكونًا تلك الكتلة الأكثر سوادًا من غيرها. وركز هاري أنظاره على تلك الكتلة السوداء، فرآها تتحرك قليلًا.. إنه هو..

كان الرجل يزحف متجهًا إليه، كلا.. بل تجاه الرجل الملقي على السطح.. إنه يسعى وراء البندقية. وأقعى هاري إلى أسفل ثم راقب الرجل وهو يتحرك، حتى صار متأكدًا أنه هو، حينئذ أمطره سيلًا من البندقية. وأضاء وهج الرصاص جسد الرجل الذي كان يزحف على يديه وركبتيه، وعندما توقف الوهج وصوت الرصاص، سمعه يهوي إلى أرضية المركب ككتلة ثقيلة..

وقال هاري: «أنت.. أيها الوغد القاتل ذو الوجه الضخم».

كانت البرودة التي أحاطت بقلبه قد أخذت تنقشع، وزحف إلى أسفل خزان الوقود، ليحضر خزانة جديدة لبندقيته، وأخذ الخزانة.. وحين تطلع إلى يده، وجدها مبتلة بالوقود..

وقال لنفسه: لقد أصبت الخزان، ينبغي أن أوقف الآلات حتى لا ينفجر المركب.. وأسقط خزانة الرصاص الفارغة، ثم وضع الخزانة الجديدة.. وصعد خارجًا إلى القمرة.

وقف هاري مورجان، ممسكًا بندقيته بيده اليسرى، ونظر حواليه قبل أن يغلق غطاء غرفة الآلات بالخطاف المثبت في يده اليمنى.. وأثناء ذلك، كان الكوبي الراقد على المقعد، والذي أصيب بثلاث طلقات في كتفه، بينما ذهبت الطلقات الأخرى في خزان الوقود، كان هذا الكوبي قد جلس وأحكم التصويب، وأطلق الرصاص على معدة هاري.. وأحس هاري كما لو كان قد ضرب في بطنه بقبضة حديدية.

كان ظهره مستندًا إلى إحدى المواسير التي يرتكز عليها كرسيا الصيد وبينما كان الكوبي يطلق الرصاص للمرة الثانية، فيحطم الرصاص كرسي صيد، انحنى هاري والتقط بندقيته، ورفعها بعناية.. واندفع منها سيل من الرصاص استهلك نصف خزانتها، وقضى على الرجل فتكوم على مقعده، وتحسس هاري الأرض بيده، حتى وجد ذا الوجه الضخم، فرفع رأسه بالخطاف المثبت في يده اليمنى، ووضع فوهة البندقية على رأسه، وضغط الزناد، فانطلق الرصاص محطمًا جمجمة الرجل.. وبعد ذلك ألقى هاري بالبندقية إلى أرضية القمرة، واستلقى على جنبه.

وأخذ يقول لنفسه: إنني كلب، انتهى.. ولكن يجب إيقاف الآلات، وإلا احترق المركب. ما زالت أمامي فرصة.. يا إلهي..

شيء واحد يفسد الخطة.. عليك اللعنة.. ذلك الوغد.. من كان يظن أنني لم أجهز عليه؟

نهض على يديه وركبتيه، وزحف إلى كرسي القيادة، واستند إليه، وقد تملكته الدهشة لاستطاعته الحركة بسهولة.. وفجأة أحس بالإغماء والضعف، حين وقف منتصبًا.. وهكذا انحنى إلى الأمام، مستندا بذراعه المقطوعة إلى البوصلة، وأدار المفتاحين.

توقفت الآلات، وصمتت.. وأصبح يستطيع سماع صوت الماء يرتطم بجوانب المركب. وأخذ المركب يتأرجح في البحر الصغير حين هبت الريح الشمالية وبدأت تزأر.

تعلق هاري بعجلة القيادة، ثم جلس ببطء على المقعد المواجه لها، وانحنى على اللوحة التي أمامه. كان في استطاعته أن يحس بقوته تنسحب منه تدريجيًّا. وبأن إحساسًا متواصلًا بالغثيان قد بدأ يزحف عليه، وفتح قميصه بيده السليمة، وتحسس الفجوة بكفه، وتصور شكلها.. كان النزيف قليلًا. وفكر: إن النزيف كله إلى الداخل.. يحسن بي أن أستلقي لكي يتوقف.

رقد على جنبه.. وحينئذ استدار المركب، ودخل ضوء القمر إلى القمرة. ورأى كل شيء بوضوح.

أخذ يفكر.. إنها مزدحمة ، هذا أحسن وصف لها، مزدحمة. إنني أعجب ماذا ستفعل ماري؟ ربما يدفعون لها مكافأة. فلتلعن السماء ذلك الكوبي. يمكنها أن تواصل الحياة، فهي امرأة ذكية. أعتقد أنها

كانت عملية خاسرة. أعتقد أنني قضمت لقمة أكبر مما أستطيع أن أمضغ.. كنت قد سرت بالخطة بنجاح حتى نهايتها. لا يدري أحد، كيف تم هذا؟ كم أتمنى أن أفعل شيئًا من أجل ماري. هناك نقود كثيرة على ظهر هذا المركب لا أدري حتى ما مقدارها؟ في استطاعة أي إنسان أن يصير ثريًّا بهذه النقود! هل سيستولي عليها رجال خفر السواحل؟ ربما يأخذون بعضها.. كم أتمنى أن تعرف المرأة العجوز القصة كاملة. لا أدري كيف ستتصرف.. أعتقد أنه كان ينبغي عليَّ أن أجد وظيفة في محطة بنزين أو أي مكان آخر. كان ينبغي عليَّ أن أهجر العمل على المراكب، فلم تعد المراكب تأتي بنقود شريفة. لو لم يدر المركب حول نفسه.. لو أبطلت دورانه. أستطيع أن أحس بأمعائي تندفع إلى الأمام وإلى الخلف. لقد مات كل من اشترك في هذة العملية. أنا، و«فم النحلة»، وألبرت، وأولئك الأوغاد أيضًا.. كانت عملية مشئومة ، أعتقد أن شخصًا مثلي كان له أن يعمل في محطة بنزين. يا للجحيم، ولكني لا أستطيع إدارة محطة بنزين. وماري ماذا ستفعل؟ لو كانت تلك الكلبة تتوقف عن الدوران؟ عليَّ أن أتجلد.. ينبغي علىّ أن أتحمل بقدر الإمكان. يقولون إنك إذا لم تشرب ماء، ورقدت ساكنًا، فإنك.. ويقولون لا تشرب الماء بالذات.

وتطلع إلى ما أوضحه ضوء القمر داخل القمرة..

حسنًا، ليس عليَّ أن أنظفها.. فلأتقبل الأمر ببساطة. هذا ما ينبغي عليَّ عمله.. أن أتحمل الأمر ببساطة. ينبغي أن أكون هادئًا بقدر

الإمكان، فإذا رقد ساكنًا ولم يشرب الماء فإنه..

رقد على ظهره، وأراد أن يتنفس بانتظام. وأخذ المركب يدور حول نفسه مندفعًا مع تيار الخليج، وهاري مورجان راقد على ظهره فوق أرضية القمرة. وحاول في بداية الأمر أن يحمي نفسه من ألم الدوران، بأن يمسك بشيء بيده السليمة، ولكنه لم يستطع، فرقد ساكنًا، واستسلم للأمر.

وحين أشرق صباح اليوم التالي على كي وست، كان ريتشارد جوردون في طريقه إلى منزله، بعد أن زار مقهى فريدي ليستفسر عن حادث سرقة البنك. وأثناء قيادته لدراجته، مر بامرأة ضخمة ذات عينين زرقاوين، وشعر أشيب يبدو من تحت قبعة من الفلين مما يرتديه الرجال.

كانت تسرع عبر الطريق، وقد احمرت عيناها من أثر البكاء. وحين تطلع إلى تلك البقرة الضخمة أخذ يفكر: أي شيء يمكن أن يخطر على بال امرأة كتلك؟ وهل يحبها زوجها حقًّا؟ ومع من- من نساء البلد- يخونها؟.. يا إلهي إنها كالطراد. إنها مرعبة.

كان قد وصل إلى بيته الآن.. فترك دراجته أمام المنزل، ودخل إلى الردهة، بعد أن أغلق الباب الأمامي خلفه. ونادته زوجته من المطبخ قائلة:

- ماذا اكتشفت يا ديك، بشأن الحادث؟

فرد عليها: «لا تكلميني الآن.. فإنني سأبدأ في الكتابة. إن الصورة كلها في ذهني الآن».

فقالت: «هذا رائع.. سأتركك وحيدًا».

وجلس إلى المنضدة الضخمة التي في الغرفة الأمامية. وأخذ يكمل روايته، وقد وضع نصب عينيه صورة المرأة الضخمة التي قابلها منذ قليل. كان قد رأى، خلال ومضة من التنبؤ، الحياة الداخلية العميقة لامرأة من ذلك النوع.

إهمالها لزوجها، رغبتها في إنجاب الأطفال والحماية، عدم تعاطفها مع آمال زوجها، سأمها من الحياة الزوجية... سيكون هذا فصلًا ممتعًا في الرواية!

أما المرأة التي كان قد رآها، فكانت ماري، زوجة هاري مورجان، أثناء عودتها إلى البيت بعد أن قابلت ضابط البوليس.

* * *

الفصل الثامن عشر

مركب الموت

كان مركب فريدي ولاس، المسمى «كوين كونش»، والذي طوله أربعة وثلاثون قدمًا ويحمل رقمًا ينتسب إلى ولاية فلوريدا مطليًّا باللون الأبيض.. وكانت مقدمته مطلية بلون يطلقون عليه اسم الأخضر الفاقع، وبنفس هذا اللون دهنت الجدران الداخلية لقمرته. كان اسمه واسم الميناء الذي يلجأ إليه، وهو «كى وست- فلوريدا» مطليين باللون الأسود على مؤخرته، وكان أحد لوحي زجاج غرفة القيادة فيه محطمًا. وكانت هناك عدة ثقوب حديثة قد حطمت خشب المركب المدهون حديثًا، كانت تلك الثقوب متناثرة في كل مكان.. بل كان بعضها فوق خط منسوب المياه مباشرة. وكان هناك سائل أسود ينقط في الماء مكونًا دوائر، ويتسرب من أكثر الثقوب انخفاضًا.

كان المركب يسير مع ريح الشمال الخفيفة، على مبعدة عشرة أميال من خط سير المراكب الأخرى، ويبدو مرحًا وزاهيًا بلونيه الأبيض والأخضر.. بالنسبة إلى مياه تيار الخليج المعتمة. كانت أعشاب البحر التي صفرتها الشمس، تطفو على الماء قريبة منه.. ولكنه عبرها ببطء، وهو يسير مع التيار المتجه إلى الشمال وإلى الشرق. لم تكن تبدو على المركب أي دلائل للحياة، رغم أنه كان هناك جسد رجل يبدو وكأنه قد انبطح على وجهه، يتأمل الماء عند المقدمة. وعلى مقعد آخر بدا رجل ثان وكأنه ينحني ليمد يده في ماء البحر. كان رأسه وذراعاه في الشمس وأصابعه تكاد تلمس الماء، حيث كانت هناك مجموعة كبيرة من الأسماك الصغيرة الذهبية اللون، المخططة بخطوط بنفسجية، والتي هجرت أعشاب الخليج، لتحتمي في الظلال التي تحت قاع المركب. وفي كل مرة كان يسقط شيء من المركب إلى البحر، كانت تلك الأسماك تغوص وراءه وتتدافع ثم تلتهمه. وكانت هناك سمكتان رماديتان ضخمتان، طول الواحدة منهما حوالي ثماني عشرة بوصة، تسبحان حول المركب، وهما تفتحان فميهما ثم تغلقانهما. ولكن يبدو أنهما لم تكونا قد اكتشفتا الوليمة التي تجمع حواليها السمك الصغير.

وحينئذ اكتشفتا جلطات الدم المتساقطة من الثقوب السفلى في المركب فاتجهتا إليها.. وبعد أن شبعتا، انصرفتا.

وداخل قمرة السفينة، كان هناك ثلاثة رجال آخرون.. كان الأول يرقد ميتًا على ظهره، حيث سقط أسفل عجلة القيادة.

والثاني يرقد ميتًا هو الآخر، وهو مكوّم في كتلة ضخمة عند المؤخرة. أما الثالث فكان لا يزال حيًّا، ولكنه فاقد الوعي، وقد رقد على جنبه، ووضع رأسه على ذراعه.

كان الجزء الأسفل من المركب قد امتلأ بالجازولين، وكان الجازولين يحدث صوتًا عند ارتجاجه بسبب دوران المركب. واعتقد الرجل، هاري مورجان، أن هذا الصوت يصدر من معدته، وبدا له أن معدته قد صارت بحيرة كبيرة ترتطم أمواجها بكلا شاطئيها في وقت واحد. كان يحس بهذا الشعور، لأنه كان يرقد حينئذ على ظهره، وقد رفع ركبتيه إلى أعلى.. وكان كل شيء له طعم الجازولين، وكأنه كان يفرغ خزانًا من الجازولين بفمه..

كان البرد يهرأ جسده كله.. برد مؤلم لا يزول، ورقد في هدوء واستسلم له. وفكر مرة في أن يرفع ساقيه فوق جسده، ليحس بالدفء، وحاول ذلك، فبدأ يشعر بالدفء. ولكن هذا الدفء لم يكن مبعثه إلا النزيف الذي نتج عن تحريك ركبتيه إلى أعلى.

وبدأ الدفء يزول، فلم يجد بُدًّا من الاستسلام للبرد.

كان المركب يسير مع التيار، منذ العاشرة من الليلة الماضية، وكان الوقت الآن قد وصل إلى ساعة متأخرة من الأصيل. وهناك على سطح ماء تيار الخليج، لم يكن يوجد شيء سوى أعشاب البحر، ودخان بعيد ينبعث من ناقلة بترول، وهي تسير بحمولتها شمالي تامبيكو.

الفصل التاسع عشر

لقاء بين زوجين

قال ريتشارد جوردون لزوجته: حسنًا؟..

فأجابته: بقميصك، وأعلى أذنك، أحمر شفاه.

- وما رأيك في هذا؟

- رأيي في أي شيء؟

- في علاقتك بهذ السكير الحقير؟

- وأنت أين كنت؟

- عند آل برادلي..

فقالت: أعرف هذا.. لا تقترب مني، فأنت عبد لتلك المرأة.

- وأنت عبدة لماذا؟

- لا شيء.

- لقد سمحت له بتقبيلك أيتها الكلبة..

- لو قلت هذة الكلمة مرة أخرى، فلن أعيش معك.

- أنت كلبة..!

- كلا.. إنني لست كلبة.. لقد حاولت أن أكون زوجة صالحة، ولكنك أنت أناني ومتكبر، كديك الحظيرة.. لقد كنت دائم الصياح: انظري ماذا فعلت.. انظري كيف جعلتك سعيدة.. أنت لم تجعلني سعيدة إطلاقًا، وقد سئمتك، وسئمت غرورك.

- أنت لم يكن لديك ما تغترين به، ولم تنجبي أبدًا ما يدعوك للغرور..

- وغلطة من كانت هذه؟ ألم أرغب في إنجاب أطفال؟ ولكنك كنت دائمًا تقول إننا لا نستطيع تحمل أعبائهم ونفقاتهم. إني أمقتك.. وكانت تلك المرأة برادلي هي آخر ما أحتمل..

- أوه.. دعيها وشأنها.

- وتأتي إلى البيت، وأحمر الشفاه يلوث كل جزء فيك، ألم يكن في استطاعتك حتى أن تغتسل؟ هناك بعض منه أيضًا على جبهتك.

- وأنت قبلت ذلك القذر المخمور.

- كلا.. لم أفعل.. ولكني لو كنت أعلم أنك قبلتها، لفعلت.

- وعلام عولت؟

- لا أدري حتى الآن.. ربما أتزوج جون ماك ولسي.

- كلا.. لن تفعلي.

- سأفعل عندما أريد.

- لن يتزوجك هو.

- بل سيفعل، فقد عرض عليَّ الزواج أصيل اليوم.

صمت جوردون برهة، ثم قال: «عرض عليك ماذا؟».

- أن أتزوجه.. لأنه يحبني.. لأنه يكسب من المال ما يكفينا.

- ولكنك زوجتي...!.

- ليست هذه هي الحقيقة.. فلم يعقد زواجنا في الكنيسة، لأنك لم ترغب في أن يتم زواجنا هناك، وحطمت قلب أمي المسكينة. كنت أحبك جدًّا، وكنت مستعدة أن أحطم قلبي من أجلك، ولكني كنت غبية، فقد حطمت قلبي بيدي.. حطمته وانتهى، تركت من أجلك كل معتقداتي، وكل ما أهتم له، لأنك كنت رائعًا، ولأنك كنت تحبني الحب الذي لا يهمني سواه.. الحب هو أعظم الأشياء جميعًا، أليس كذلك؟ الحب هو الشيء الوحيد الذي نملكه نحن الاثنين، والذي لم ولن يملكه أي إنسان آخر سوانا، ألم يكن هذا كلامك؟.. إلى الجحيم بالحب.. لقد سئمتك وسئمت الحب... حبك الحقير، أنت أيها الكاتب.

- حسنًا..

- ليس حسنًا.. بل سيئ وسيئ.. لو كنت كاتبًا محترمًا، لكان

في استطاعتي أن أتحمل بقية نزواتك، ولكني رأيتك، حقودًا، غيورًا، تغير مبادئك حسب الأوضاع.. تبتسم في وجوه الناس ثم تسبهم من وراء ظهورهم.. حاولت أن أرعاك، وأستجيب لنزواتك، وأتظاهر بأنني سعيدة، وأتحمل انفجاراتك، وغيرتك ووضاعتك، أما الآن فقد انتهى كل هذا!.

- ولهذا تريدين أن تبدئي من جديد مع البروفيسور السكير؟

- إنه رجل شفوق، ودود، يجعلك تشعر بالراحة، لقد أعاد إليَّ القيم القديمة التي فقدتها معك.. إنه مثل أبي.

- إنه سكير..

- نعم إنه يشرب، وكذلك كان والدي.. ولكنه كان يرعانا إذا مرضنا، كان يفعل أي شيء من أجل أمي.. وكان طيبًا..

- كان ينبغي أن تكوني كاتبة، لتكتبي عنه..

- كان من الممكن أن أصير كاتبة أفضل منك.. وجون ماك ولسي رجل طيب، وهذا ما تفتقر إليه أنت، بل هذا ما لا تستطيع أن تكونه.

ونظر ريتشارد إلى وجهها الحزين الحانق، الذي بدا جميلًا وهي تبكي، وقد انتفخت شفتاها كوردتين بللهما المطر، فقال لها:

- وهكذا لم تعودي تحبينني إطلاقًا؟

- إنني أكره مجرد لفظ الحب.

ثم صفعها على وجهها صفعة قوية، فصرخت في وجهه قائلة:

- لم تكن بحاجة إلى مثل هذا التصرف.

- بالعكس، بل كنت أحتاج إليه.. أنت تعرفين الكثير جدًّا، ولكنك لا تعرفين كم كنت في حاجة إلى مثل هذا التصرف.

وانتقل بذاكرته فجأة إلى ذلك الأصيل، حين كان مع هيلين برادلي، ثم كيف قطع عليهما خلوتهما شخص ما، وكيف تركها وانصرف، وقد قرر بينه وبين نفسه، أن هذا آخر لقاء له معها.

كانت زوجته جالسة الآن إلى المنضدة، وقد أسندت رأسها إلى يديها، ولم يتفوه أي منهما بأية كلمة.. وساد السكون الغرفة، ولم يكن يقطعه سوى دقات الساعة المتتابعة، وبعد برهة قالت له:

- إنني آسفة لما حدث، ولكن الأمر كان فوق احتمالي.

- أجل.. كان لك كل الحق.. فقد كان الوضع سيئًا.

- كلا.. لم يكن سيئًا طوال الوقت.. فقط في الفترة الأخيرة.

- إنني آسف لتصرفي معك.

- أوه.. هذا لا شيء.. لم تكن الصفعة لتؤثر في أي شيء.. لقد كانت تحية وداع.

- ولكنك لن ترحلي..

- ينبغي عليَّ أن أنصرف.. سآخذ حقيبتي وأمضي.

- افعلي هذا في الصباح.. افعلي ما تريدين عندما يطلع النهار.

– أوه، يا إلهي.. ليت ما حدث لم يحدث، ديك أنت في حاجة إلى شخص يرعاك، سأحاول أن أدبر لك الأمر قبل انصرافي، لو لم تصفعني فربما كانت الأوضاع قد تغيرت.

– كلا.. فالأوضاع سيئة قبل ذلك بكثير.

– إنني آسفة من أجلك، يا ديك!

وأخذت تبكي، فقال لها:

– هل ستذهبين إلى البروفيسور السكير؟

فصاحت: لا تقل هذا.. ألا نستطيع أن نسكت ولا نتكلم إطلاقًا؟

– أجل..

– إذن سأنام أنا هنا.

– كلا، باستطاعتك استعمال الفراش.. بل ينبغي أن تنامي في فراشك.. وسأخرج أنا لبعض الوقت.

– أوه، لا تخرج..

فرد عليها قائلًا: «بل ينبغي أن أخرج».

فقالت له: «إلى اللقاء».

ورأى وجهها الذي أحبه دائمًا.. ذلك الوجه الذي لم تكن كثرة البكاء تذهب جماله، وأحس بحبه الدافق لها.. حين خرج من الباب، كانت لا تزال تتابعه بنظراتها عبر المنضدة، وقد وضعت ذقنها بين يديها، وأخذت تبكي.

الفصل العشرون

الهارب من نفسه

لم يركب ريتشارد جوردون دراجته، بل سار على قدميه منحدرًا مع الشارع، كان البدر حينئذ قد توسط كبد السماء، وبدت الأشجار سوداء في ضوئه، وعبر المنازل الخشبية بفناءاتها الضيقة، والضوء الذي ينبعث من نوافذها المغلقة، ووصل إلى الحواري غير المرصوفة، بصفيها من المنازل، كان هذا هو الجزء الشعبي في البلدة، حيث كل شيء هناك: المنازل المغلقة، والفضيلة، والفشل، والبقول المسلوقة، وسوء التغذية، والتعصب، والأجناس المختلطة، بيوت الرذيلة التي كانت بهجتها لا تتركز في شيء سوى أسمائها، الكنيسة الحجرية، بأبراجها العالية الحادة في ضوء القمر، أفنية الدير الواسعة، وقبته السوداء، وتبدو عليه سيماء الجمال في ضوء القمر، كانت هناك محطة بنزين، ومطعم لبيع الساندوتشات، أضواؤه باهرة، وبجواره ملعب الجولف الصغير، وهناك كان الشارع الرئيس المضاء جيدًا،

بصيدلياته الثلاث، وصالات الرقص، ودكاني الحلاقين، ومخازن الجعة الخمسة، ثم المطاعم الخمسة الفقيرة، والمطعم الأنيق، ودكان المصور، وعمارة تشغلها المكاتب، بها أربع عيادات لأطباء أسنان، وفندق على الناصية أمام موقف لسيارات التاكسي، هناك في الجانب القصيّ من البلدة يقف بناء السجن ساحقًا في ضوء القمر، ثم بار «ليلاك» حيث كانت السيارات تملأ الحارة أمامه.

كان بار «ليلاك» يتألق بالأنوار الباهرة، ومزدحمًا بالناس، وحين دخل ريتشارد جوردون، رأى غرفة القمار مزدحمة، والعجلة تدور في وسطها، والكرة الصغيرة تقفز فوق منضدة اللعب لتسقط في واحدة من الحفر العديدة، وكان الصمت يخيم على الغرفة ما عدا صوت دوران عجلة الروليت، وخشخشة البطاطس المحمرة التي يلتهمها الحاضرون، وعند البار كان صاحب المحل يقدم الشراب لزبونين، فقال حين رأى جوردون:

– هاللو، هاللو، مستر جوردون.. ماذا تريد أن تشرب؟

فأجابه ريتشارد: «لا أدري».

– أنت لا تبدو في حالة طيبة.. ماذا بك؟ هل تشعر بتعب؟

– كلا.

– سأعد لك شرابًا طيبًا.. حين تشربه تحس بالراحة.. ولكن ماذا بك، هل تريد أن تتعارك مع أحد؟

ثم صاح: «أعد لمستر جوردون شرابًا خاصًّا».

وشرب ريتشارد جوردون ثلاث كؤوس من البسنت الإسباني وهو واقف إلى البار، ولكنه لم يشعر بأي تحسن.. فقال لعامل البار: قدم لي شرابًا من نوع آخر.. أعطني ويسكي.

وجعله الويسكي يشعر بالدفء يسري في جسده، ولكنه لم يستطع أن يغير مجرى تفكيره، وأدرك أنه لو شرب حتى يفقد وعيه، فسيجد نفس العذاب أمامه حين يفيق.

فقطع عليه تفكيره دخول رجل نحيف طويل، أخذ يناقشه في مؤلفاته، ويبدي إعجابه ببعضها وامتعاضه من البعض الآخر، ووجد جوردون في هذا الرجل مادة لتسليته، فأخذ يناقشه بحماس، وأخيرًا اتضح له أنه معتوه، وترك الرجل بعد فترة وانصرف!

كان يطلب من عامل البار كأسًا جديدة من الويسكي حين رأى ضابط البوليس قادمًا ناحيته، كان الضابط رجلًا بالغ الطول، شكله يوحي بالألفة، وقد رآه ريتشارد في أصيل ذلك اليوم في حفل آل برادلي، وتحدث إليه بخصوص حادث السطو على البنك وقال له الضابط:

- إذا لم يكن هناك ما يشغلك، فهل يمكنك أن تأتي معي بعد فترة من الوقت؟ لقد أمسك رجال خفر السواحل بمركب هاري مورجان.. فقد أرسلت إحدى ناقلات البترول إشارة إلى ميتاكومب تدلها على مكان المركب، وقد أمسكوا بكل من عليها.

فرد عليه ريتشارد جوردون قائلًا: هل قبضوا عليهم جميعًا؟

– تقول الإشارة، إن كل من عليها أموات، ما عدا واحدًا.

– هل تعلم من هو؟

– كلا.. فلم يقولوا.. الله وحده يعلم ماذا حدث.

– وهل استولوا على النقود؟

– لا يدري أحد.. ولكن لا بد أنها موجودة على سطح المركب، ما داموا لم يتمكنوا من الوصول به إلى كوبا.

– ومتى سيصلون؟

– أوه، ربما بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الآن.

– وإلى أين سيقودون المركب؟

– أعتقد إلى رصيف البحرية، حيث ترابط قوات خفر السواحل.

– وأين سألتقي بك لنذهب إلى هناك؟

– سأمر عليك هنا.

– هنا، أم عند فريدي.. لأنني لم أعد أستطيع تحمل هذا المكان أكثر من ذلك.

– إن الحالة ستكون سيئة الليلة عند فريدي.. فالمكان مملوء بعمال الموانئ، وهم دائمًا يثيرون الشغب.

– سأذهب إلى هناك، وألقي نظرة.. فإنني أشعر بأنني في حالة نفسية سيئة.

– حسنًا.. إذن ابتعد عن المشاكل، سأمر لآخذك من هناك في بحر ساعتين.. هل تريد أن أوصلك إلى هناك؟

– شكرًا..

وشقا طريقهما خارجين وسط الزحام، وركب ريتشارد جوردون بجانب الضابط في سيارته، ثم سأله:

– ماذا تعتقد أنه حدث في مركب هاري مورجان؟

– يعلم الله.. يبدو أن الأمر كان في غاية السوء.

– هل لديهم أية معلومات أخرى؟

فرد عليه الضابط: «لا شيء.. والآن خذ حذرك».

كانا قد سارا في مواجهة الأضواء المنبعثة من واجهة مقهى فريدي.. وكان المكان يعج بالرجال، منهم من يرتدي بنطلونات العمال الزرقاء، ومنهم من يرتدي قبعات، أو يسير عاري الرأس.. كانوا خليطًا متناقض الشكل والحجم والملبس، وحين وقفا بالسيارة، رأيا رجلًا يقذف به إلى الشارع من الباب المفتوح، وفوقه رجل آخر، سقطا وأخذا يتدحرجان على الرصيف، وأمسك أحدهما بشعر الآخر، وأخذ يدق رأسه بأرض الشارع، ولم يحاول أي من الموجودين في البار أن يعير الأمر اهتمامًا.

ونزل الضابط من السيارة وجذب الرجل الذي كان إلى أعلى من كتفه، وصاح: أوقف هذا، انهض هناك.

ونهض الرجل واقفًا، ونظر إلى الضابط ثم قال:

- لم لا ترعى شئونك فقط، بحق السماء؟

وحدق الرجل الثاني في الضابط.. كان الدم يغمر شعره، وينصب من إحدى أذنيه، فقال للضابط في تثاقل.

- اترك صديقي وحيدًا.. ماذا بك؟ هل تعتقد أنني لا أستطيع أن آخذ بثأري؟

وتركهما الضابط، ثم قال لجوردون: سأمر عليك فيما بعد.

- حسنًا.. سأكون في انتظارك.

دخل ريتشارد جوردون المقهى وبصحبته الاثنان اللذان كانا يتعاركان، وجلس ثلاثتهم إلى البار، وقدم جوردون لهما الشراب..

وأخذوا يتحادثون، وظل يقدم لهما الشراب مرات عديدة، كان يحس بالسعادة لأنه يفعل هذا.

وفجأة، ارتفع صوت اثنين يتشاجران، ويسبان بعضهما، وصاح أحد الحاضرين: «اضربوا ذلك الفتى» فرأى ريتشارد جوردون قبضة تندفع في وجه كان قريبًا منه، ثم سحبوا الرجل المضروب بعيدًا عن البار، وفي الخلاء، انهال عليه رجلان ضربًا، ثم قذفا به بجوار الحائط.

بدأ ريتشارد جوردون يشعر بأنه مخمور، وبدت صورة وجهه في المرآة التي خلف البار غريبة وشاذة.. ورغم ذلك لم يحاول التخلص

من الرجلين اللذين كانا يجلسان معه.

وفجأة، وعند آخر البار، استطاع أن يرى الوجه المورد، والعينين الزرقاوين، والشارب المغبر المقصوص بعناية، كان البروفيسور ماك ولسي جالسًا يتطلع أمامه، وأخذ ريتشارد جوردون يراقبه، وهو يشرب جعته، ثم يرفع شفته السفلى، ليزيل رغوة الجعة من على شاربه.

وأحس ريتشارد جوردون بانقباض في صدره، وعرف لأول مرة في حياته، كيف يكون شعور المرء، حين ينظر إلى الرجل الذي ستتركه زوجته من أجله.

وسأله أحد الرجلين: «ماذا بك يا صديقي؟.. يبدو عليك كما لو كنت قد رأيت شبحًا.

فسأله ريتشارد: «هل ترى ذلك الرجل الجالس هناك»؟.

فسأله الرجل الثاني: «ماذا بشأنه؟».

فأجابه ريتشارد جوردون: «لا شيء.. عليه اللعنة..».

– هل يضايقك؟ يمكننا أن نلقنه درسًا.. في استطاعتنا أن نقفز عليه، ونوقعه أرضًا، ثم تضع أنت حذاءك فوقه.

فقال جوردون: «كلا.. لن يفيد هذا».

ورد عليه الرجل الأول: «يمكننا أن نجهز عليه، حين يخرج.. فإني لا أحب نظراته، هذا الكلب يضايقني».

فقال ريتشارد جوردون: «إني أمقته.. فقد دمر حياتي».

- فلنذهب لنضرب ذلك الرجل علقة.. ثم نعود لنشرب جعتنا.

- كلا.. اتركاه وشأنه.

- لا يا صديقي، لا يمكن.. لقد قلت إنه دمر زوجتك.

- حياتي، لا زوجتي.

- آسف يا صديقي.. آسف.

وحينئذ ارتفعت الأصوات مرة أخرى، كان هناك اثنان يتشاجران.. وسالت الدماء واختفى الرجلان اللذان كانا إلى جواره طوال الوقت، بعد أن شربا زجاجة الجعة، كان الرجلان يتقاتلان.

أصبح ريتشارد جوردون الآن بجوار البروفيسور ماك ولسي على البار... كانت المشاجرة قد دفعته ناحية البروفيسور.

قال له البروفيسور ماك ولسي: «هل تتناول شرابًا؟».

فأجاب ريتشارد: «لا أتناول شرابًا معك أنت».

فرد البروفيسور ماك ولسي في هدوء: «أعتقد أنك على صواب... ولكن هل رأيت في حياتك مكانًا كهذا؟».

فقال ريتشارد جوردون: «كلا».

وتابع البروفيسور حديثه قائلًا: «إنه مكان غريب جدًّا، والزبائن هنا مذهلون.. إنني آتي إلى هنا دائمًا أثناء الليل».

- ألا تقع أبدًا في مشاكل؟

- كلا... ولماذا أقع في مشاكل؟

- صديقان لي كانا سيضربانك منذ دقيقتين، ليتني تركتهما يفعلان ذلك.

- لا أعتقد أن هذا سيغير من الواقع كثيرًا، وإذا كان وجودي هنا يضايقك فيمكنني أن أترك المكان.

وقال جوردون: «كلا.. إنني أحب أن أكون إلى جوارك».

- نعم..

وسأله ريتشارد جوردون: «هل سبق لك أن تزوجت؟».

- نعم.. وقد توفيت زوجتي في وباء الإنفلونزا عام ١٩١٨.

- ولماذا تريد أن تتزوج الآن؟

- لأنني أعتقد أنني الآن أكثر صلاحية للزواج.. أو ربما لأنني أعتقد أن في استطاعتي الآن، أن أكون زوجًا صالحًا.

- وهكذا اخترت زوجتي؟

فأجاب البروفيسور: «أجل».

- عليك اللعنة.

ثم رفع يده ليضربه في وجهه.. لكن شخصًا ما جذب ذراعه.. فخلص ذراعه، وحينئذ ضربه شخص ما ضربة عنيفة خلف أذنه، كان في استطاعته أن يرى أمامه البروفيسور ماك ولسي، وهو لا يزال

جالسًا إلى البار، بوجهه المتورد، وهو يطرف بعينيه، كان يمد يده ليأخذ زجاجة جعة أخرى غير التي انسكبت بسبب حركة جوردون، وسحب ريتشارد جوردون ذراعه إلى الخلف، ليحاول ضربه مرة ثانية، وأثناء ذلك، انفجر شيء ما خلف أذنه، وتوهجت كل الأضواء أمام ناظريه، وأخذت تدور، ثم انطفأت.

ثم وجد نفسه بعد ذلك واقفًا بباب مقهى فريدي، كان رأسه يدق، والغرفة المزدحمة غير مستقرة أمام ناظريه، وشعر باشمئزاز وألم في معدته، كان في استطاعته أن يرى الجماهير تتفرج عليه، وكان هناك رجل عريض المنكبين يقف بجواره، وهو يقول:

– اسمع، إنك لا ترغب في إثارة القلاقل هنا.. فالمكان فيه كفايته من مشاجرات السكارى.

وسأله ريتشارد جوردون: من الذي ضربني؟

– أنا الذي ضربتك.. فهذا الشخص زبون دائم هنا، وعليك أن تتقبل الأمور ببساطة، وألا تثير القلاقل.

وبينما كان ريتشارد جوردون يقف مترنحًا، رأى البروفيسور ماك ولسي يأتي متجهًا إليه وخارجًا من زحام البار.. وقال:

– إنني آسف.. لم أرغب في أن يؤذيك أحد، وأنا لا ألومك على شعورك العدائي تجاهي.

فقال ريتشارد، وهو يتجه نحوه مهاجمًا: عليك اللعنة.

كانت هذه آخر حركة تذكر ريتشارد جوردون أنه قام بها، فقد تحرك الرجل ذو المنكبين العريضين، وهبط بيديه على كتفه، ثم ضربه مرة أخرى، وفي هذه المرة سقط ريتشارد على وجهه على بلاط الشارع، واستدار الرجل إلى ماك ولسي وقال:

- لقد أصبح الأمر على ما يرام، يا دكتور.. لن يضايقك الآن، ولكن ماذا يثيره ضدك؟

فرد عليه البروفيسور: «ينبغي أن آخذه إلى منزله.. هل هو بخير؟».

- بالتأكيد.

فقال البروفيسور ماك ولسي: «ساعدني على وضعه في تاكسي».

وحملا ريتشارد جوردون فيما بينهما، ووضعاه في التاكسي بمساعدة السائق.

وسأله البروفيسور ماك ولسي:

- هل أنت متأكد أنه سيكون على ما يرام؟

- عليك فقط أن تجذبه من أذنيه بشدة، حين تريده أن يفيق، أو صب عليه بعض الماء، وخذ حذرك حتى لا يبدأ التشاجر معك حين يفيق..لا تدعه يخدعك، يا دكتور.

وسأله سائق التاكسي: «إلى أين سنذهب؟».

فأجابه البروفيسور: «إلى الخلاء، إلى الجانب الآخر من البلدة،

بعد المنتزه.. عند نهاية الشارع المتفرع من حلقة السمك».

فقال السائق: «هذا طريق روكي».

- أجل.

وحين مروا بأول مقهى على رأس الشارع، طلب البروفيسور ماك ولسي من السائق أن يتوقف، كان يريد شراء بعض السجائر.. فوضع رأس ريتشارد جوردون على المقعد بعناية، ودخل إلى المقهى.. وحين عاد ليركب التاكسي، كان جوردون قد اختفى.

وسأل السائق: «أين ذهب؟».

فرد السائق: «إنه هناك عند نهاية الشارع».

- الحق به.

وحين لحق به التاكسي، نزل البروفيسور ماك ولسي، وذهب إلى ريتشارد الذي كان يسير مترنحًا على الرصيف، وقال:

- هيا، يا جوردون... نحن ذاهبون إلى البيت.

فتطلع إليه ريتشارد جوردون، ثم قال في تهكم: نحن؟

- أريد منك أن تعود إلى البيت في هذا التاكسي.

- اذهب إلى الجحيم.

فقال البروفيسور ولسي:

- كم أتمنى أن تأتي، إنى أريدك أن تذهب إلى البيت سالمًا.

فسأله ريتشارد: وأين فتوتك الذي ضربني؟

- لقد كان الساقي.. ولم أكن أعلم أنه سيضربك.

فقال ريتشارد جوردون في مرارة: «أنت تكذب».

واتجه ناحية ذي الوجه المتورد، الذي كان يقف أمامه، ولكنه أخطأه، وسقط على ركبتيه فوق الرصيف، فجرحت ركبتاه.. وقال في انكسار:

«هيا.. تقاتل معي!».

فرد عليه البروفيسور ماك ولسي: «إنني لا أتقاتل.. وإذا ركبت التاكسي فسأتركك وحدك».

- اذهب إلى جهنم.

ثم بدأ يسير منحدرًا مع الطريق.

وقال سائق التاكسي: «اتركه يذهب.. إنه بخير الآن».

- هل تعتقد أنه على ما يرام؟

فأجاب السائق: «يا للجحيم... طبعًا».

ورد البروفيسور: «إنني قلق عليه».

فقال السائق:

- إنك لن تستطيع أن تجعله يركب إذا لم تتعارك معه، دعه يذهب، إنه بخير.

وراقب ريتشارد جوردون وهو يسير في الشارع، حتى اختفى عن الأنظار خلال ظلال الأشجار الضخمة التي كانت أغصانها تمتد إلى أرض الشارع وتبدو كالجذور، ولم يكن الشيء الذي يفكر فيه وهو يراقب ريتشارد، بالشيء السار، إنها لخطيئة مهلكة، خطيئة كبرى وقاتلة ارتكبتها في حق هذا الرجل.. بل إنها قسوة بالغة، ورغم أن العقيدة تسمح بهذا، إلا أنني لن أغفر لنفسي، ومن ناحية أخرى، فالجراح لا يستطيع التقهقر أثناء قيامه بإجراء العملية، خوفًا من إيلام المريض، ولكن لم تتم جميع عمليات الحياة، دون مخدر؟ لو كنت إنسانًا أفضل، لتركته يضربني، كان هذا سيفيده.. ذلك الرجل الغبي المسكين الذي فقد بيته، كان ينبغي عليَّ أن أبقى إلى جواره، ولكني أعلم أن هذا سيكون شديد الوطأة جدًّا عليه، إنني أشعر بالخجل والتقزز من نفسي، إنني أكره ما فعلت، وربما يترتب على الأمر نتائج سيئة، ولكن ينبغي عليَّ ألا أفكر في هذا، سأعود الآن إلى التخدير الذي ظللت أستعمله طيلة سبعة عشر عامًا، وهناك لن أفكر طويلًا، ولكنني أتمنى لو أستطيع مساعدة ذلك الرجل المسكين الذي أسأت إليه.

قال للسائق: عد بي إلى مقهى فريدي.

كان البروفيسور ماك ولسي يشعر بأنه في أشد الحاجة إلى كأس.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

هذيان رجل

كانت قاطرة خفر السواحل، التي تقطر المركب «كوين كونش» تدخل إلى القناة، التي بين الشعاب المرجانية والخلجان، وأخذت القاطرة تتأرجح مع الموجة المتكسرة، التي كانت تثيرها الريح الشمالية، وأخذت تلك الأمواج تصطدم بتدفق فيضان المد، ولكن المركب البيضاء كان ينزلق وراء القاطرة في خفة ويسر.

وقال ربان القاطرة:

- سيكون الحال على ما يرام، لو لم تشتد الريح، كما أن عملية السحب تتم بشكل طيب.

- ولكن ألم تستطع أن تفهم شيئًا من هذيانه؟

فرد عليه مساعده: إنه فاقد الوعي أيضًا.

واستطرد الربان يقول: أعتقد أنه سيموت حتمًا، بعد هذه الإصابة الخطيرة في معدته.. ولكن هل تعتقد أنه قتل هؤلاء الكوبيين الأربعة؟

- لا يستطيع أحد أن يعرف.. وقد سألته عن ذلك، ولكنه لم يكن يعرف ما أقول.

- ألا نحاول التحدث إليه مرة أخرى؟

فأجابه مساعده قائلًا:

- «فلنحاول».

وتركا عجلة قيادة القاطرة، إلى الضابط المساعد، ثم توجها معًا إلى قمرة الربان، وهناك كان يرقد هاري مورجان على السرير وقد أغلق عينيه.. ولكنه فتحهما حين لمس الربان كتفه.

وسأله الربان في حنان: «هاري، كيف حالك؟».

وتطلع هاري إليه، ولم يتكلم.

- أتريد منا أن نفعل لك أي شيء، يا بني؟

وتطلع هاري مورجان إليه.

وقال مساعد القبطان: إنه لا يسمعك.

وكرر الربان السؤال: ألا تريد شيئًا، أيها الفتى؟

وبلل منشفة من زجاجة الماء المجاورة للسرير، وبلل شفتي هاري مورجان المشققتين، كانت شفتاه جافتين وشديدتي السواد، وتطلع إليه هاري مورجان، وبدأ يتكلم فقال: رجل.. وحثه الربان على الكلام قائلًا:

أجل، أجل.. استمر.

وأخذ هاري مورجان يتكلم ببطء:

- إن رجلًا.. ليس له.. لن يكون..له.. من مخرج...

وتوقف عن الكلام.. وحين كان يتحدث كان وجهه خاليًا تمامًا من التعبير.. وقال له الربان:

- هيا.. قل لنا من فعل هذا؟.. كيف حدث هذا، يا بني؟

- إن رجلًا...

قالها هاري، وهو يتطلع إليه.. كانت عيناه الضيقتان، في وجهه الذي برزت عظام وجناته، تحاولان أن تقولا شيئًا.

وحاول الربان مساعدته على الكلام، فقال: «أربعة رجال..».

ثم بلل شفتي هاري مرة أخرى، وهو يعصر المنشفة ليجعل بعض قطرات قليلة من الماء تنزلق بين شفتيه.

وقال هاري مصححًا للربان كلامه: إن رجلًا..

ثم توقف عن الكلام.. وحثه الربان على الكلام قائلًا:

- حسنًا، إن رجلًا...

ومرة أخرى، تكلم هاري، بصوت أجوف، وببطء شديد.... كان الكلام يخرج بصعوبة من بين شفتيه الجافتين، وأخذ يقول:

- إن رجلًا..الآن... وقد سارت الأمور.. إلى هذه الدرجة..

لا يهم.. لا فائدة...

ونظر الربان إلى مساعده، وهز رأسه آسفًا، فحاول المساعد أن يسأل هاري، وقال: من فعل هذا، يا هاري؟

وتطلع هاري إليه، ولم يتكلم، ثم قال: لا تخدع نفسك...

وحينئذ انحنى الربان ومساعده فوق هاري.. كانت النوبة قادمة، واندفع هاري يقول:

- وكأنك تريد أن تعبر قمم الجبال بسيارة، هذا ما يحدث في طريق كوبا. هذا ما يحدث في أي طريق.. وفي أي مكان. الأمر هو ولا يتغير. أقصد كيف كانت الأمور تسير. ظلت تسير إلى أفضل، ولكن لفترة قصيرة. ربما كان سبب هذا الحظ، ولكن رجلًا..

وتوقف عن الكلام.. وهز الربان رأسه آسفًا مرة أخرى. وتطلع إليه هاري مورجان بنظرة جوفاء. وبلل الربان شفتي هاري مرة أخرى، فلوثتا المنشفة بالدم..

وعاود هاري مورجان الكلام، وهو يتطلع إليهما معًا:

- إن رجلًا..رجلًا وحيدًا.. ليس أمامه.. ليس هناك.. من رجل وحيد..الآن..

والتقط أنفاسه، ثم تابع حديثه قائلًا:

- لم أكن أهتم.. كيف أن.. رجلًا.. بمفرده...لا يمكن أن.. تتاح أمامه.. فرصة..

وأغلق عينيه.. كانت هذه الحقيقة المرة، قد استغرقت منه وقتًا طويلًا جدًّا، ليعرفها، وكلفته حياته ليتعلمها..

كان لا يزال راقدًا في مكانه، ولكنه كان قد فتح عينيه، حين قال الربان لمساعده: هيا بنا، ثم وجه الكلام لهاري: هل أنت متأكد أنك لا ترغب في شيء يا هاري؟

ونظر إليه هاري مورجان، ولكنه لم يجب.. كان قد أخبرهما بكل شيء، ولكنهما لم يسمعا.

وقال الربان: سنعود إليك.. تجلد، يا بني.

وتابعهما هاري مورجان بنظراته، وهما يغادران القمرة..

وأمام عجلة القيادة، في مقدمة القاطرة، كان الربان ومساعده يرقبان بداية حلول الظلام، وحينئذ قال المساعد: لقد كان يسرد عليك الحقائق المترسبة في ذهنه، بهذا الشكل المشوه.

فرد عليه الربان في حزن:

- يا للفتى المسكين.. ولكننا سنصل حالًا جدًّا. سنصل به بعد منتصف الليل مباشرة، هذا إذا لم تؤخرنا عملية السحب هذه.

- أتظن أنه سيعيش؟

- فأجابه الربان: كلا.. ولكن من يدري؟!

* * *

الفصل الثاني والعشرون

أصحاب اليخوت

تجمع حشد هائل من الناس في الشارع المظلم، خارج البوابة، التي كانت تسد مدخل قاعدة الغواصات القديمة التي تحولت الآن إلى حوض لليخوت. وكان الحارس الكوبي قد تلقى الأوامر بعدم السماح لأحد بالدخول. ولكن الجمهور كان يتدافع، ويتزاحم تجاه السور الحديدي، ليحاول الرؤية خلال قضبان السور الحديدية. كانت المنطقة المظلمة في نهاية الرصيف تضيؤها أنوار اليخوت الواقفة في المرساة. وكان الحشد هادئًا كهدوء أي حشد في كي وست. وحاول اثنان من أصحاب اليخوت، بالتزاحم والدفع بالمناكب، أن يشقا طريقهما إلى البوابة، حتى وصلا إلى الحارس.

وصاح الحارس فيهما..

- هاي، ليس بإمكانكما الدخول..

- ماذا بك بحق الجحيم؟ إننا من أصحاب اليخوت..

فرد عليهما الحارس:

- ليس مسموحًا لأحد بالدخول.. عودا من حيث أتيتما..

- لا تكن غبيًّا..

قالها أحدهما، ثم دفعه جانبًا، ليفسح الطريق لزميله، وبعد ذلك اتجها إلى رصيف الميناء.

تركا الجمهور الضخم وراءهما خارج البوابة، حيث كان الحارس الضئيل الجسم يقف قلقًا ويبدو عليه الانزعاج، بقبعته، وشاربه الطويل، وسلطته التي اعتدى عليها، وهو يتمنى في سره، لو كان معه مفتاح لتلك البوابة الضخمة، ليغلقها. وبينما كان يطآن الطريق المنحدر في مرح، رأيا أمامهما مجموعة من الرجال ينتظرون على رصيف السواحل. وتجاوزاهم دون أن يعيراهم أدنى اهتمام، ثم سارا متجاوزين المراسي الملحقة برصيف رقم خمسة، والتي كانت ترسو عندها يخوت أخرى، ثم عبرا مرساة خشبية تغمرها الأضواء الباهرة، وصعدا إلى سطح اليخت «نيو اكسوما رقم ٢». وجلسا في الكابينة الرئيسة على كراسٍ وثيرة من الجلد، إلى جوار منضدة طويلة، ألقيت عليها مجلات.

ودق أحدهما الجرس للخادم. وحين جاء، قال له:

- ويسكي بالصودا.. وأنت يا هنري، ماذا تشرب؟

فرد هنري كاربنتر قائلًا: وأنا أيضًا..

- ما سبب هذا الحشد الضخم الذي عند البوابة؟

فأجاب هنري كاربنتر: ليس لديَّ أدنى فكرة..

وأحضر الخادم الكأسين، فقال له صاحب اليخت ولاس جونستون: أدر تلك الأسطوانات، التي أحب الاستماع إليها بعد العشاء.

فرد الخادم: أخشى أن تكون هذه الأسطوانات قد فُقدت يا سيدي.

فقال ولاس جونستون في ثورة:

- عليك اللعنة.. إذن أدر تلك الأسطوانات الجديدة..

- حسنًا جدًّا، يا سيدي..

وذهب الخادم إلى دولاب الأسطوانات.. وأخرج ألبومًا، واتجه به إلى الجرامافون وأدار أسطوانة. وحينئذ تساءل هنري كاربنتر:

- هل رأيت تومي برادلي اليوم؟.. لقد رأيته عند وصول الطائرة.

فرد ولاس: إنني لا أطيقه، لا هو ولا تلك المرأة، زوجته.. وقال هنري كاربنتر: ولكني أميل إلى هيلين، إنها رائعة..

- إنني لا أستسيغها إطلاقًا، ولا أدري ما الذي يدفعها إلى المعيشة هنا؟

- إن مسكنهم هنا بديع..

- إنني أكرهها هي وزوجها، فهي تمثل كل ما أكرهه في المرأة، وكذلك زوجها تومي برادلي، إنه يجسد الصفات التي أكرهها.

وهنا قال كاربنتر: يبدو عليك الليلة الضيق الشديد..

فرد عليه ولاس:

- من المستحيل عليك أن تشعر بالضيق، لأنك هنا لا تجد إلا الاستقرار.. فأنت لا تستطيع أن تقرر شيئًا، ولا أن تعرف حتى ماذا يلائمك؟

فقال هنري كاربنتر وهو يشعل لفافة تبغ: سأتركك..

- لماذا؟..

- حسنًا.. أولًا، لأنني أصاحبك في هذا اليخت اللعين، وأفعل كل ما تطلبه مني، وبهذا لا تبذل المال لتمنع عن نفسك تهديدات البحارة، وصرافي الأتوبيسات. ثانيًا، إنهم بهذا لا يعرفون حقيقتك ولا تعرف أنت حقيقة وضعك..

فقال ولاس جونستون: إنك تبدو منشرحًا.. ولكنك تعلم أنني لا أدفع أية نقود عن طريق التهديد.

- كلا، أنت لا تفعل، لأنك مفترٍ جدًّا في هذه الناحية، ولأن لك أصدقاء من أمثالي..

- ليس لي أي أصدقاء من أمثالك.

وقال هنري في ضيق:

- لا تستظرف، فإني لست مستعدًّا لتحمل هذا، الليلة.. هيا استمع إلى موسيقاك، والعن خادمك، وأكثر قليلًا من الشراب، ثم اذهب إلى فراشك.

وهنا نهض الآخر واقفًا وسأله: ماذا حدث لك؟

- لماذا أصبحت مجلبة للنكد إلى هذه الدرجة؟ هل تعلم أنك لم تعد صفقة رابحة؟

فقال هنري بهدوء:

- أجل، أعلم هذا.. سأكون غدًا في حالة أفضل.. فالليلة ليلة سوء، ألم تلاحظ أي اختلاف بين الليالي؟ أعتقد أنك حين تكون ثريًّا بما فيه الكفاية، فلن تشعر بالاختلاف.

- إنك تتكلم كصبية في مدرسة..

ورد عليه هنري كاربنتر قائلًا:

- طابت ليلتك.. إنني لست كصبية ولا كصبي في مدرسة. كل ما أريده هو أن أنام، وسيصبح كل شيء على ما يرام في الصباح.

- هل المبلغ الذي فقدته، هو سبب كل هذا الحزن؟

- لقد فقدت ثلاثمائة دولار.

- ألم أقل لك؟ هذا إذن هو سبب حزنك.

– أجل.. ورغم أن هذا يحدث كل ليلة، فلست أدري ما الذي جعلني أفكر الليلة في هذه الخسارة. والآن سأذهب لأنام، حتى لا أضايقك..

– أنت لا تضايقني، ولكن حاول ألا تكون وقحًا..

– أخشى أن أقول إنني وقح فعلًا، وإنك تضايقني.. طابت ليلتك، سيصبح كل شيء على ما يرام غدًا.

فقال ولاس جونستون: تناول شرابًا، فذلك سينعشك..

فرد عليه هنري كاربنتر: لا أريد شرابًا، لأنه لن ينعشني..

– حسنًا.. إذن اذهب لفراشك

فرد عليه هنري كاربنتر قائلًا: سأفعل..

كان هذا ما حدث في تلك الليلة على سطح اليخت (نيو اكسوما رقم ٢). كان باليخت طاقم بحارة يتكون من اثني عشر شخصًا، ويرأسهم الكابتن نيلزلارسون. وعلى سطح هذا اليخت، كان يوجد صاحبه ولاس جونستون، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، والحاصل على ماجستير من جامعة هارفارد، والذي يؤلف موسيقى، ويحصل على دخل من مصانع حرير يمتلكها، وهو غير متزوج، وقد وصلت شهرته من الجزائر إلى بسكرة.. ويوجد معه على ظهر اليخت، ضيف واحد هو هنري كاربنتر، وعمره ستة وثلاثون عامًا، حاصل على ماجستير من جامعة هارفارد، ودخله الآن مائتا دولار

شهريًّا كراتب ثابت يحصل عليه من وصية لأمه.

وكان هذا المبلغ قبل ذلك أربعمائة وخمسين دولارًا شهريًّا، ثم خفض حين تغيرت الوصية. ولكن قبل أن تخفض هذه الوصية بوقت طويل، كان يقال، إنه لو سقط هنري كاربنتر من ارتفاع ٥٥٠٠ قدم دون مظلة هبوط، فسيتمكن من الوصول إلى الأرض سالمًا، وسيكون بعد هبوطه جالسًا إلى مائدة طعام أحد الأغنياء. وهو لم يكن ليقبل ضيافة ولاس جونستون، لو لم يقل دخله، ويشعر بأنه على شفا الإفلاس، وقد تخلى عنه أصدقاؤه، وأصبح يحس بأنه عبء عليهم. ووجد في ولاس، بملذاته الشاذة، آخر ملجأ له. ورغم تملق هنري كاربنتر لولاس جونستون، ومحاولته استرضاءه دائمًا، إلا أن ولاس كان قد بدأ يمل صحبته. وهكذا أجّل هنري كاربنتر انتحاره المحتم.

أما النقود التي كانت في نظره، لا تساوي الحياة التي يحياها، فكانت تزيد مائة وسبعين دولارًا في الشهر، على النقود التي كان صياد السمك ألبرت تريسي يعول بها أسرته، قبل وفاته التي انقضى عليها ثلاثة أيام.

وعلى ظهر اليخوت الأخرى، كان هناك آخرون، بمشاكل أخرى.. ففوق سطح واحد من أكبر اليخوت التي كانت راسية، وهو يخت أنيق، أسود.. كان يرقد مستيقظًا تاجر حبوب عمره ستون سنة، وهو قلق بشأن التقرير الذي تلقاه مؤخرًا من مكتبه،

بشأن التحريات التي قام بها مكتب الدخل المحلي. كان معتادًا في مثل ذلك الوقت من الليل، أن يهدئ أعصابه بجرعة كبيرة من الويسكي، ثم يصل إلى مرحلة اللامبالاة بالفروق، فيختلط بإخوانه المسنين على الشاطئ ويظل يسكر معهم. ولكن طبيبه كان قد منعه من الشرب بتاتًا لمدة شهر، وفي الواقع لمدة ثلاثة شهور، اختصرها هو لشهر واحد. ولكن ها هو ذا قلق الآن بشأن المكالمة التليفونية التي تلقاها من المكتب حين كان في البلدة، والتي سألوه فيها أن يخبرهم بمكان إقامته بالضبط، وما إذا كان سيغادر المياه الإقليمية الأمريكية أم لا؟

كان يرقد حينئذ، مرتديًا بيجامته، على سريره العريض، وقد وضع وسادتين تحت رأسه، وأضاء مصباح القراءة ولكنه لم يكن يستطيع تركيز ذهنه فيما يقرأ من تقارير في الأيام الغابرة. لم يكن يحضر التقارير مطلقًا إلى فراشه، كان يحتفظ بتلك التقارير في الدولاب، وكان يأتي إلى فراشه بعد أن يكون قد فرغ منها. كانت غرفة نومه هي قلعته الخاصة، التي لا يسمح للعمل مطلقًا أن يتسرب إليها..

كان راقدًا وهو يتعجب، ماذا وجد مكتب الدخل المحلي في أعماله، وماذا اكتشفوا وماذا سيقولون؟ ماذا سيقبلون من عملياته، وماذا سيرفضون؟ لم يكن يخافهم، ولكنه كان يكرههم فحسب، ويكره السلطة التي في أيديهم، والتي يستغلونها بغباء.

لم يكن يفكر في أي شيء معين، بل كان يفكر في صفقات، ومبيعات، وتحويلات، وهدايا.. كان يفكر في الأنصبة، وفي الأرباح، والاستيلاء على شركات أخرى، والتأمينات، والعمليات غير المشروعة. وحينما تابع التفكير وأخذ يمعن النظر في أعماله، عرف أنهم سيمسكون عليه الكثير، وأنه لن ينعم بالسلام طيلة عدة سنوات.. وتملكه القلق، في الأيام الخوالي لم يكن يشعر بالقلق إطلاقًا، ولكن جانب النضال فيه أصابه الوهن، كان عليه الآن أن يواجه تلك المشاكل وحيدًا، وهو راقد على فراشه الضخم العريض العتيق، وليس في استطاعته النوم ولا القراءة.

كانت زوجته قد حصلت على الطلاق منه منذ عشرة أعوام، وبعد زواج استمر عشرين عامًا من الحفاظ على المظاهر.. لم يفتقدها قط، ولم يحبها قط.. كان قد بدأ مشاريعه بنقودها، وكانت قد ولدت له صبيين، كان كلاهما أبله كأمه. وظل يعاملها معاملة طيبة، حتى تضاعفت النقود التي كانت قد أخذها منها، وبعد ذلك أهملها، وحين وصلت نقوده إلى تلك الكمية الضخمة، لم يعد يعنيه إطلاقًا، صداعها، وشكواها، ومشروعاتها. وتجاهل هذا كله..

تزايد أسفه، حين فكر، في أنه لو كان حصيفًا منذ خمس سنوات فقط.. لكان قد دفع ضرائبه، دون أن يلجأ إلى الخداع. ولو كان قد فعل هذا، لكان الآن مستريح البال. وهكذا رقد يفكر في هذا، وفي النهاية غلبه النوم. ولكن حيث إن الندم كان قد وجد منفذًا يتسرب منه

إليه، فقد بدأ يزحف ويزحف لدرجة لم يحس معها بأنه قد نام فعلًا، إذ إن ذهنه كان لا يزال يفكر، تمامًا كما كان منذ لحظة وهو مستيقظ. وهكذا لن يحصل على الراحة المنشودة، بعد أن بلغ تلك السن، لن يستمر به الأمر طويلًا، وستنتهي حياته!

كان يقول دائمًا إن القلق يصيب النفوس فقط، وظل يحاول إبعاد القلق عن نفسه، حتى وصل به الحال إلى أن استحال النوم عليه.

كان بإمكانه أن يبعد القلق عن نفسه ما دام مستيقظًا، ولكن ما إن ينام حتى يزحف عليه. وكان من السهل على القلق أن ينتصر عليه بعد أن بلغ هذه السن. ألم يكن في حاجة إلى القلق بشأن ما فعله للناس الآخرين، ولا بشأن ما حدث لهم نتيجة أعماله، والحالة التي انتهى إليها أولئك الذين طردهم من منازلهم القائمة على شاطئ البحيرة، وجعلهم يستأجرون مساكن في أوستن؟ وكيف أن بنات بعضهم اضطررن لقطع دراستهن للعمل كممرضات، هذا إذا اتيحت لهن أصلًا فرصة العمل. وذلك الرجل الذي انتهى به الحال إلى أن يصير حارسًا ليليًّا بعد أن بلغ عمره ثلاثًا وستين سنة، لأنه طُرد من مسكنه. وذلك الذي أطلق على نفسه الرصاص بسبب ذلك، ووجده طفله في الصباح مضرجًا في دمائه. هل كان حقًّا يستطيع أن يبتعد عن القلق؟

هل نسي أنه كان يدور على البيوت في بداية حياته ليعرض السلع المختلفة التي يحملها في جيبه على السكان: مضارب البيض،

وعصارات الفواكه، وغيرهما؟

هل نسى طريقته في البيع.. «دعيني فقط أريك يا سيدتي كيفية استعمالها.. عليك فقط أن تثبتيها هكذا، ثم تديريها، وبعد ذلك تحصلين على العصير».

- كلا، لا أريد..

- خذي واحدة جربيها..

- لا أريد شيئًا.. هيا انصرف..

وهكذا كان يُطرَد، ويخرج ليسير على قدميه في الشوارع، وهو حزين لأن أحدًا لم يشتر منه. ولكنه بعد ذلك اغتنى، وارتفع على حطام الآخرين. لكن هذا لم يكن يقلقه.. ينبغي أن يخسر شخص ما ليربح الآخرون، والقلق لا يؤثر إلا في ضعاف النفوس!

كلا، لن يفكر فيهم، ولا في بضائعه المغشوشة.. لقد كسبت أنت، وحتم أن يخسر شخص ما، مقابل ذلك، ولا يقلق إلا ضعاف النفوس!

يكفيه المدة التي فكر فيها، فيما كان ينبغي عليه أن يفعل منذ خمس سنوات.. ليس في استطاعته الآن أن يفعل شيئًا، وقد بلغ هذه السن. إن مجرد التفكير في تغيير ما لم يتمكن من عمله في الماضي، سيترك للقلق سبيلًا إلى نفسه.. ولكن لا يقلق إلا ضعاف النفوس! إنه يستطيع دفع القلق بكأس من الويسكي.. وإلى الجحيم ما قاله

الطبيب. وهكذا يقرع الجرس في طلب كأس، ويحضرها له خادم يغلبه النعاس، وحين يشربها يتراجع عنه القلق، ما عدا قلقه من الموت!

* * *

وعلى يخت آخر، كانت تنام عائلة غنية مرحة مستقيمة. الأب ضميره مستريح وينام على جنبه، ويتدلى فوق رأسه نموذج صغير لسفينة، ومصباح القراءة مضاء.. وهناك كتاب قد سقط منه إلى جوار فراشه. أما الأم فتنام نومًا عميقًا، وهي تحلم بحديقتها.. إنها في سن الخمسين، ولكنها سيدة أنيقة، ممتلئة، ومحافظة، يبدو منظرها جميلًا أثناء نومها. أما البنت فكانت تحلم بخطيبها الذي سيصل بطائرة الغد، وتتذكر شيئًا ما، وتضحك أثناء نومها. كانت جميلة بخصلات شعرها الأشقر البديع، ووجهها الرائع ذى الجلد الرقيق الناعم. وكانت أثناء نومها تبدو تمامًا مثل أمها، عندما كانت في سنها.

كانت عائلة سعيدة، يحب أفرادها بعضهم البعض.. كان الأب رجلًا يشغل منصبًا كبيرًا، وله عدة أعمال. كان رجلًا كريمًا، عطوفًا، يقدر الظروف، ولهذا لم يكن يصيبه الانزعاج أبدًا. وكان طاقم بحارة اليخت تدفع لهم مرتباتهم بسخاء، ويتناولون وجبات شهية، وقمراتهم مؤثثة تأثيثًا جيدًا. كان جميع البحارة يحترمون صاحب اليخت ويحبون زوجته وابنته. أما الخطيب فكان شابًّا يعمل في

شركة، وأمامه المستقبل العريض، وهو دائمًا يفكر في الآخرين قبل أن يفكر في نفسه. وكان طيبًا مع كل شخص، مثل فرانسيس.. بل ربما كان أكثر طيبة مع فرانسيس أيضًا، ولكن لا بد أن تمر سنوات حتى تتحقق فرانسيس من هذا. وربما تمر هذه السنوات دون أن تتوصل إلى الحقيقة.. هي ونصيبها!

على أية حال، كانوا جميعًا نائمين نومًا عميقًا. ولكن من أين كانت تأتى النقود التي كانوا ينفقونها بسخاء؟ كانت النقود تأتي إليهم من بيع شيء يستهلك منه الناس ملايين الزجاجات. وكانت الزجاجة تتكلف ثلاثة سنتات، وتباع بدولار. وجميع الناس في العالم يحبون هذا الشراب، ويكتشفون له فوائد جليلة يومًا بعد يوم، ويشربونه في لحظات حزنهم وفرحهم. وإن نقودًا تأتى عن مثل هذا الطريق لا يترتب عليها أي قلق أو محاولة للانتحار، وهكذا كان كل من على ظهر اليخت ينامون في عمق.

* * *

كان هذا اليخت هو (الزيرا رقم ٣)، الذي قبطانه جون جاكوبسون، وطاقم بحارته يتكون من أربعة عشر بحارًا، وعلى ظهره يوجد صاحبه وعائلته وعلى ظهر اليخت (إيريجيا رقم ٤) كانت ترقد دوروثي، التي أتت مع صديقها الثري، لتقضي فصل الشتاء، في هذه المنطقة الدافئة. كانت تحاول النوم منذ مدة طويلة، ولكن النوم لم يكن يريد أن يطرق جفنيها. وقامت لتتناول أحد الأقراص المنومة.. ونظرت إلى نفسها

في المرآة. كانت جميلة جمالًا غير عادي، بل فاتنة، بجسدها الصغير الرقيق.. وأخذت تفكر: ينبغي أن أنام، إن الأقراص المنومة ضارة فعلًا، ولكن ماذا أستطيع أن أفعل، ينبغي أن أنام وإلا جننت. وزيادة على ذلك، فإنني أحب النوم. كم أتمنى أن أستطيع النوم، أن أنام مرة واحدة، نومًا طبيعيًّا عميقًا، كما ينام البشر.. كم أحب أيام الطفولة، حين كان الواحد منا ينام قرير العين، لا يشغل ذهني شيء. أعتقد أن هذا الأرق، هو الضريبة التي ندفعها للحياة حين نكبر، وننجب أطفالًا، ثم نشرب الخمور كثيرًا، ونفعل أشياء كثيرة، ما كنا نجرؤ على فعلها.

وتطلعت إلى وجهها في المرآة.. قالت لنفسها في همس: يجدر بك أن تتناولي القرص. وأخذت القرص المنوم، وابتلعته. وأخذت تفكر: إن الحبوب المنومة تجعل المرء عصبيًّا فيما بعد.. ولكن ينبغي على المرء أن ينام. ما أعجب الرجال، إنهم دائمًا متقلبون، ويبحثون عن الجديد، فإذا كانت المرأة سوداء الشعر، تمنوا الشقراء، وإذا كانت شقراء تمنوا حمراء الشعر، وهكذا.

أوه، لن أهتم بشيء. إنني أشعر الآن بالنعاس.. وتثاءبت.

وتذكرت قبل أن تستغرق تمامًا في النوم، أن ترقد على جنبها حتى لا يستقر وجهها على الوسادة. وهكذا تذكرت هذا الأمر، رغم أنها كانت في منتهى النعاس؛ لأنها كانت تعتقد أن النوم بغير هذه الطريقة، يشوه جمال الوجه!

كان هناك في المرفأ يختان آخران، ولكن النوم كان يسيطر على كل من فيهما، وحينئذ دخلت إلى حوض اليخوت قاطرة خفر السواحل، التي تسحب مركب فريدي المسمى «كوين كونش»، وألقت مرساها على رصيف خفر السواحل.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

من المركب إلى المستشفى

لم يكن هاري مورجان يدري بما يحدث حوله.. فقد أخذ بعض الرجال محفة من على الرصيف، ثم ناولوها لاثنين كانا يقفان على سطح القاطرة الرمادية، خارج قمرة الربان، وقد سلطت عليها الأضواء، ورفعه اثنان آخران من فوق سرير الربان الحديدي، وخرجا به بصعوبة ثم وضعاه فوق المحفة. كان قد فقد وعيه منذ ساعة مبكرة من المساء، وكان جسده الضخم قد جذب قماش المحفة السميك إلى أسفل، حينما رفعها الأربعة، واتجهوا بها إلى الرصيف.

- ارفعوا المحفة إلى أعلى.

- أمسك بساقيه، حتى لا ينزلق..

- ارفعوا..

واستقرت المحفة على الرصيف.. بينما كان الرجال يدخلون المحفة إلى سيارة الإسعاف.

سأل ضابط البوليس: كيف حاله يا دكتور؟

فأجاب الطبيب:

- إنه ما زال حيًّا.. هذا كل ما أستطيع قوله.

وتدخل مساعد ربان قاطرة خفر السواحل قائلًا:

- لقد بقي يهذي أو فاقدًا الوعي منذ التقطناه.

كان الربان المساعد رجلًا قصيرًا، يلبس نظارات تلمع تحت أضواء الكشافات، وتحتاج ذقنه إلى حلاقة.. وبعد برهة استطرد يقول:

- أما الكوبيون فهم لا يزالون على ظهر المركب.. وقد تركنا كل شيء كما هو. لم نلمس شيئا، فقط أنزلنا الاثنين الذين كانا على السطح إلى أسفل، أما كل شيء فما زال كما هو، النقود والبنادق وكل شيء.

وأشار الضابط إلى مدير الأرصفة، قائلًا:

- تعال هنا، هل تستطيع توجيه الأضواء الكاشفة هناك، عند المؤخرة؟

- سأجعلهم يثبتون مصباحًا على الرصيف.

قالها، ثم ذهب ليحضر المصباح والسلك. واستدار الضابط نحو الربان وقال: هيا بنا.

وأخذا بطاريتين، وذهبا إلى مؤخرة المركب.. وقال الضابط:

- أريد منك أن تصف لي الحالة التي وجدتهم عليها.. ولكن قل لي، أين النقود؟

- في هاتين الحقيبتين؟؟

- كم عددها؟..

- لا أعلم، فقد فتحت إحدى هاتين الحقيبتين، وعندما رأيت النقود بداخلها أغلقتها، ولم أحاول لمسها..

فأجابه الضابط: هذا حسن.. هذا حسن جدًّا.

- وكل شيء ما زال على حاله تمامًا، ما عدا الجثتين اللتين نقلناهما من فوق الخزانات إلى القمرة حتى لا يتدحرجا من فوق سطح المركب.. أما هذا الثور الضخم، هاري، فقد نقلناه إلى ظهر القاطرة، ووضعناه في الفراش. وكنت أتصور أنه سيموت قبل وصولنا، فقد كان في حالة سيئة جدًّا..

- هل كان فاقد الوعي طوال الوقت؟

- كان يهذي في البداية، ولكن المرء لم يكن يستطيع أن يفهم شيئًا مما يقول. ولقد أنصتنا إلى الكثير من كلامه، ولكنه كان كلامًا لا معنى له. وبعدئذ فقد وعيه.. أما المنظر فكان كالآتي.. ذلك الرجل

الأسمر الذي تراه راقدًا على جنبه، يرقد في نفس المكان الذي كان فيه هاري. أما مكانه هو، فكان فوق الخزان متدليًا إلى أسفل. وعلى المقعد المجاور له، كان يرقد ذلك الرجل الأسمر الآخر، منكفئًا على وجهه. احذر، لا توقد أى ثقاب، فالمركب مليء بالوقود.

وقال الضابط: كان ينبغي أن توجد هنا جثة أخرى.

- هذا كل ما كان موجودًا.. فالنقود في تلك الحقيبة، والبنادق في نفس الأماكن التي وجدناها فيها..

فقال الضابط: من الأفضل أن يأتى معنا مندوب من البنك ليشرف على فتح حقيبة النقود.

فرد الربان: فعلًا إنها فكرة طيبة.

- وبإمكاننا أن نأخذ الحقيبة إلى مكتبي.. ونختمها بالشمع الأحمر. فرد الربان: فكرة لا بأس بها.

وحين غمر المركب ضوء المصباح الكشاف، اكتسب طلاؤه الأخضر والأبيض لونًا براقًا، وكان هذا من أثر قطرات الندى المتناثرة عليها.

وبدت المياه خضراء صافية تحت مؤخرتها، وبعض الأسماك الصغيرة تقفز حواليها..

وتحت الضوء الذي غمر القمرة، بدت وجوه القتلى المنتفخة متألقة وحول جثثهم تناثرت خمس وأربعون رصاصة فارغة، وكانت

البندقية التومي ملقاة عند المؤخرة حيث وضعها هاري. وكانت الحقيبتان الصغيرتان اللتان أحضر فيهما الرجال النقود من البنك، مستندتين إلى أحد خزانات الوقود..

وقال الربان:

– لقد فكرت في نقل النقود معى على ظهر القاطرة، ولكني اعتقدت أنه من الأفضل تركها على نفس الحالة التي كانت عليها، حيث إن الريح لم تكن قوية، ولم يكن هناك ما يخشى منه عليها.

فرد عليه الضابط:

– كان صوابًا منك تركها حيث هي.. ولكن ماذا حدث للرجل الآخر، ألبرت تريسي؟

وأجابه الربان:

– لا أدري.. هذه هي نفس الحالة التي كان عليها المركب، باستثناء نقل هاتين الجثتين. لقد مزقهم الرصاص جميعًا، ماعدا ذلك الراقد تحت عجلة القيادة، فإنه مصاب بالرصاص في أسفل رأسه، وقد خرج الرصاص من جبهته، وباستطاعتك أن ترى ماذا فعل الرصاص به!

فقال الضابط:

– إنه ذلك الفتى الذي كان يشبه الصبي الصغير.

ورد عليه الربان:

– ولكنه الآن لم يعد يشبه أي شيء!

وقال الضابط بعد برهة:

– ذلك الرجل الضخم هناك، هو الذي كان يحمل البندقية السريعة الطلقات، وهو الذي قتل المحامي روبرت سيمونز. ولكن ماذا يمكن أن يكون حدث لهم؟ كيف أمكن بحق الشيطان، أن يصابوا جميعًا بالرصاص؟

وعلق الربان على ذلك بقوله:

– لا بد أنهم تشاجروا فيما بينهم.. لا بد أنه نشب بينهم نزاع حول تقسيم النقود.

فقال الضابط:

– حسنًا، سنغطيهم حتى الصباح.. وسآخذ معي تلك الحقائب.

وحينئذ، وأثناء وقوفهما هناك في القمرة، كانت هناك امرأة تجرى على رصيف الميناء متجاوزة قاطرة خفر السواحل، ومن خلفها جاءت الحشود. كانت امرأة ضخمة في منتصف العمر، عارية الرأس، وشعرها غير ممشط، وقد انسدل على وجهها ورقبتها، رغم أنه كان لا يزال مربوطًا بشريط عد نهايته. وحالما رأت الجثث التي في القمرة بدأت في الصراخ ووقفت على الرصيف تصرخ وتدفع رأسها للخلف، بينما أمسكت امرأتان أخريان بذراعيها. أما الحشد الذي اندفع خلفها مباشرة فقد كوّن حلقة، وأخذ أفراده يتطلعون إلى

المركب..

وصاح الضابط:

- عليكن اللعنة.. من الذي ترك البوابة مفتوحة؟ أحضروا شيئًا لنغطي تلك الجثث: بطاطين، ملاءات، أي شيء.. ولنبعد هذا الحشد عن المكان.

وتوقفت المرأة عن الصراخ لحظة، ثم نظرت إلى المركب، ودفعت رأسها إلى الخلف وعاودت العويل، وقالت واحدة من النساء اللاتى بجوارها:

- أين وضعوه؟

- أين ذهبوا بألبرت؟

وتوقفت المرأة التي كانت تولول، وتطلعت إلى المركب ثانية، وصاحت:

- إنه ليس فيهم.. هاي، أنت يا روجر جونسون، أيها الضابط، أين ألبرت؟ أين ألبرت؟

فرد عليه الضابط قائلًا:

- إنه ليس على ظهر المركب، يا مسز تريسي.

ودفعت المرأة رأسها إلى الخلف، وأخذت تولول مرة أخرى، وقد توترت عضلات رقبتها، وتقلصت يداها، وأخذ شعرها يهتز... وفي مؤخرة الحشد، كان الناس يتدافعون بالمناكب ليصلوا إلى

الرصيف..

- ابتعد، واترك شخصًا آخر يمر.

- إنهم سيغطونهم..

كانت المرأة تقول «ألبرت! ألبرت.. يا إلهى، أين ألبرت؟».

وأخذ الصف الأمامي من الحشد يتضخم وينبعج.. وحينئذ، وأثناء صرخة من صرختها لم تتمالك مسز تريسي توازنها فسقطت في الماء الأخضر، وتحولت الصرخة إلى رذاذ وفقاقيع.

وفى الحال قفز رجلان من رجال خفر السواحل إلى الماء الأخضر الرائق، حيث كانت مسز تريسي تحيط الماء بيديها بشكل يدعو للرثاء، وانحنى الضابط فوق مؤخرة المركب، وأدلى لها خطافًا تعلقت به، وساعدها الرجلان على الصعود إلى مؤخرة المركب.

لم يحاول أي واحد من المتفرجين مساعدتها، ووقفت عند مؤخرة المركب تقطر ماء، وهي تهز قبضتيها في وجوههم وتصيح فيهم «أيها الأوغاد» وحينئذ وقع نظرها على القمرة، فولولت «ألبرت، أين ألبرت؟».

وأجابها الضابط، وهو يلتقط بطانية ليلفها بها:

- إنه ليس على ظهر المركب، يا مسز تريسي.. حاولي أن تهدئي، يا مسز تريسي، وكوني شجاعة.

وقالت مسز تريسي بحزن بالغ:

- عُقدى.. لقد فقدت عُقدى..

ورد عليها ربان القاطرة قائلًا:

- سنحضره لك من القاع في الصباح.. لا تخشي شيئًا، سنأتي لك به.

كان رجلا خفر السواحل، قد صعدا إلى مؤخرة المركب، ووقفا يقطران ماء، وقال أحدهما للآخر:

- هيا بنا، فلنذهب من هنا فقد بدأت أشعر بالبرد..

وسأل الضابط مسز تريسي، وهو يضع البطانية حولها:

- هل أنت بخير يا مسز تريسي؟

وردت عليه مسز تريسي: أنا بخير؟.. وكيف أكون بخير؟

ثم ضمت قبضتيها، ودفعت رأسها إلى الوراء، وأطلقت صرخة حادة عالية.. كان حزن مسز تريسي أكثر مما تحتمل.

وأخذ الحشد يصغي لمسز تريسى، وقد سيطرت عليه موجة من الصمت والاحترام، وكأن صراخها وعويلها كانا لازمين ليتما الصورة التي بدت فيها جثث القتلى في تلك اللحظة، حين أخذ الضابط يلفها مع أحد الحراس ببطاطين حرس خفر السواحل.

وبهذا احتجب عن أنظار أهل البلدة أبشع منظر شهدوه منذ سنوات، عندما حضروا شنق القاتل إيسلينو، على أحد أعمدة التليفون.. ذلك القاتل الذي تُرك معلقًا وجثته تتأرجح وقد أضاءتها

مصابيح السيارات العديدة التي أتت من كل مكان ليتفرج راكبوها عليه.. كان ذلك منذ أمد بعيد.

وأصيب الحشد بخيبة أمل كبيرة حين غطيت جثث القتلى، ولكن الشيء الوحيد الذي أسعدهم، أنهم كانوا الأفراد الوحيدين الذين استطاعوا رؤية هذا المنظر من دون سكان البلدة جميعًا، فقد رأوا مسز تريسي وهي تسقط في الماء، ورأوا هاري مورجان وهو يحمل على محفة إلى مستشفى البحرية، ثم إنهم رأوا كذلك الجثث، ولهذا فحين أمرهم الضابط بالابتعاد عن منطقة حوض اليخوت، انصرفوا في هدوء ورضا.. فقد كان في أعماقهم إحساس بأنهم قد تميزوا عن كل سكان البلدة جميعًا!

في تلك الأثناء، وفي مستشفى البحرية، كانت ماري، زوجة هاري مورجان، ومعها بناتها الثلاث، ينتظرن جميعًا، وهن يجلسن على أريكة في غرفة الاستقبال. كانت البنات الثلاث يبكين، بينما كانت ماري تعض على منديل في يدها.. وقد فقدت قدرتها على البكاء منذ الظهر.

وقالت واحدة من البنات لأختها:

- لقد أصيب والدي بالرصاص في معدته.

فردت عليها شقيقتها وهي تنشج:

- إن هذا أمر مرعب.

وهنا تدخلت الأخت الكبرى قائلة:

- الزما الهدوء، فإننى أصلي من أجله.. وحديثكما يقطع عليَّ صلاتي.

لم تفه مارى بكلمة واحدة، وكل ما كانت تفعله وهي جالسة، هو أن تقرض منديلها أحيانًا، وتعض على شفتيها السفلى أحيانًا أخرى..

وبعد برهة خرج الطبيب، ونظرت إليه.. فهز رأسه في أسف وسألته في انفعال مكتوم:

- هل أستطيع الدخول؟

فرد بهدوء:

- ليس الآن..

وانحنت عليه، وهمست في أذنه قائلة:

- هل انتهى؟

- أخشى أن يكون الأمر كذلك، يا مسز مورجان.

- إذن هل أستطيع أن أدخل لأراه؟

- لم يحن الوقت بعد فهو لا يزال في غرفة العمليات.

وهناك قالت في ألم دفين:

- أوه يا إلهي.. إذن سآخذ البنات، إلى البيت ثم أعود إلى هنا.

وأحست بحلقها يتورم فجأة، وبأنها تختنق وقالت: «هيا بنا

يا بنات».

وتبعتها بناتها الثلاث إلى السيارة العتيقة، ثم ركبت هي أمام عجلة القيادة، وأدارت محرك السيارة.

وسألتها إحدى بناتها:

- كيف حال والدي؟

ولم تجب ماري..

- كيف حال والدي يا أماه؟

وقالت ماري في هدوء:

- لا تتحدثن إليَّ ، أرجوكن لا تتحدثن إليَّ..

- ولكن...

- صمتًا، يا عزيزتي، صمتًا.. أبطلن كلامكن، وصلين من أجله.

وهنا بدأت البنات الثلاث يبكين من جديد. وصاحت ماري في عصبية:

- لا تبكين بهذا الشكل، لقد قلت لكن أن تصلين من أجله...

وقالت إحداهن، وهي مازالت تبكي:

- سنفعل يا أماه.. وأنا لم أنقطع عن الصلاة منذ كنا في المستشفى.

وحين استدرن بالسيارة، وسرن في الطريق الحجري، انعكس

الضوء المنبعث من مصباحي السيارة على رجل كان يسير مترنحًا في الطريق أمامهن.

وقالت ماري لنفسها:

- هذا سكير مسكين، سكير فقير بائس.

وتجاوزن الرجل بالسيارة.. كان الدم يغطي وجهه، ولكنه أخذ يواصل سيره في الظلام بعد أن اختفت أضواء السيارة. كان هذا الرجل هو ريتشارد جوردون في طريقه إلى البيت.

توقفت ماري بالسيارة أمام باب المنزل، وقالت لبناتها:

- اذهبن إلى فراشكن يا بنات.. هيا اصعدن إلى غرف نومكن.

وسألتها إحدى البنات:

- ولكن ماذا بشأن والدي؟

فردت ماري في هدوء:

لا تتحدثن إليَّ، بحق الإله، لا تتحدثن إليَّ..

ثم استدارت بالسيارة، وبدأت رحلة العودة إلى المستشفى.

وحين وصلت ماري مورجان إلى المستشفى ، صعدت السلالم في اندفاع، وقابلها الطبيب على السلم، خارجًا من الباب الزجاجي.. كان يبدو منهكًا، وأنه في طريق عودته إلى بيته.

وقال:

– لقد انتهى يا مسز مورجان.

– مات؟

– أجل توفي وهو فوق منضدة العمليات.

– هل أستطيع رؤيته؟

فأجابها الطبيب في هدوء:

– أجل تستطيعين.. ولكنه رحل في سلام، يا مسز مورجان. لم يكن يحس بأدنى ألم!!

حينئذ بدأت الدموع تنهمر فوق وجنتيها، وهي تتوجع في ألم قائلة: «أوه، أوه، أوه».

ووضع الطبيب يده على كتفها.. فصاحت به:

– لا تلمسني.. (وبعد برهة) أريد أن أراه..

فقال الطبيب:

– هيا بنا..

سار الطبيب بها خلال دهليز طويل، ثم دخل بها غرفة بيضاء، وهناك كان يرقد هاري مورجان فوق منضدة ذات عجلات، وقد غطوا جسده الضخم بملاءة. كان الضوء في الغرفة باهرًا جدًّا، ولا يلقي أي ظلال. ووقفت ماري في مدخل الغرفة، ويبدو أن شدة الضوء قد أصابتها بالذهول. فوقفت صامتة، وحينئذ قال لها الطبيب:

- إنه لم يقاس مطلقًا، يا مسز مورجان.

لم يكن يبدو على ماري أنها سمعته ثم قالت، وقد عاودتها نوبة البكاء ثانية:

- أوه يا إلهي.. انظر ماذا حدث لوجهه البديع؟!!

* * *

الفصل الرابع والعشرون

تأملات الأرملة

كانت ماري مورجان تجلس وحيدة إلى منضدة العشاء، وقد أطلقت لفكرها العنان: لا أدري ماذا أفعل.. باستطاعتي أن أجلس هكذا لأفكر فيه مرة أثناء النهار، ومرة أثناء الليل ولكن ربما تتغير الأوضاع.. آه من تلك الليالي اللعينة، تلك الليالي الطويلة القاسية.. لو وجهت عنايتي إلى هؤلاء البنات، فربما وجدت ما يشغلني، وتغير الأمر. ولكني لا أهتم بالبنات.. ولو أنه من المحتم عليَّ أن أفعل شيئًا من أجلهن. ينبغي أن أبدأ في القيام بعمل ما، وربما أتغلب بهذا على الموت القابع في داخلي.

لقد مر على ذلك الحادث أسبوع حتى الآن وإنني أخشى أن يترتب على تفكيري المتعمد فيه، أن أنسى صورته.. بل يخيل إليَّ أنني سأنساها. آه من الرعب الذي يتملكني، حين أحاول تذكر صورته وشكل وجهه، فلا أستطيع..

ينبغي عليَّ أن أبدأ الآن في ممارسة أي عمل من الأعمال.. لو كان قد ترك بعض النقود، أو لو كانوا صرفوا لي مكافأة، فربما كانت الأحوال قد تحسنت، رغم أنني أنا نفسي، لم أكن لأشعر بأي تحسن، إن أول ما ينبغي عليَّ عمله، هو محاولة بيع المنزل.. آه من الأوغاد الذين أطلقوا عليه الرصاص، آه من أولئك الأوغاد ، إنني أمقتهم. هذا هو الإحساس الوحيد الذي تبقى لي الآن.. الكراهية والفراغ.. إنني خاوية كمنزل غير مسكون. حسنًا، يتحتم عليَّ أن أبدأ في عمل شيء ما. كان يجب عليَّ أن أحضر الجنازة، ولكني لم أستطع ولكن يجب عليَّ أن أبدأ الآن في العمل.. ألا يعود إلينا أي شخص بعد موته؟

أين ذهب هو بكل ما فيه من روعة، بخفته وقوته وسرعته؟

لقد كان كحيوان نادر ثمين كان يسعدني دائمًا أن أراقب حركاته.

آه، إنني أذكر أول مرة أخذني معه إلى هافانا، كان ذلك في الأيام الغابرة، حين كان يربح كثيرًا من المال، نعم أذكر تلك المرة، حين كنا نسير في الحديقة، وقال عني زنجي كلمة ما، فما كان من هاري إلا أن لكمه لكمة ألقته على الأرض فاقد الوعي، ثم التقط هاري قبعته

القش التي كانت قد سقطت إلى الأرض، وقذفها بقوة، فطارت بعيدًا إلى الشارع، حيث سحقتها سيارة تاكسي عابرة. وأخذت أنا أضحك، وأضحك.. حتى آلمتني معدتي!

وأذكر أيضًا تلك المرة الأولى التي صبغت فيها شعري.. نعم، كنت حينئذ في صالون تجميل في حي برادو.. ظلوا يشتغلون في شعري طوال الأصيل وكان شعري أسود فاحم السواد، لدرجة أنهم لم يريدوا تغيير لونه، وكنت أنا أخشى أن يصير شكلي مرعبًا ورغم ذلك أخذت أسألهم بإلحاح إذا ما كانوا يستطيعون جعله أكثر شقرة. كان الرجل ينحني فوقه وهو يمسك بتلك العصا البرتقالية الصغيرة المثبت إلى نهايتها قطعة من القطن، وهو يغمسها في ذلك الوعاء الذي يتصاعد منه البخار، ويمسك المشط بيده الأخرى، ثم يفرق الشعر من عند جذوره مستعينًا بالمشط والطرف الآخر من العصا ثم يدهن الشعر، ويتركه يجف.. كنت أجلس حينذاك، والخوف يملأ قلبي مما يحدث، وكل ما كنت أقوله للرجل هو أن يرى إذا ما كان من المستطاع جعله يزداد شقرة.

في النهاية قال لي: إن هذه أقصى درجة يمكن أن يصل إليها لون شعري، ثم غسله بالشامبو، ومرجه.. كنت أخشى مجرد التطلع إلى شعري، وكان الرجل قد بدأ يفرقه، ويرفع جزءًا منه خلف أذني. كان الشعر لا يزال رطبًا بعد الغسيل، ولم أكن أدري كيف أستطيع أن أصف ما صار إليه، سوى أنه تغير كلية، وبدا شكلي

غريبًا عليَّ، ووضع الرجل شبكة شعر عليه، ثم أجلسني تحت المجفف، والخوف يسيطر عليَّ طوال الوقت. وبعد أن قمت من تحت المجفف، رفع الشبكة ودبابيس الشعر، وأخذ يمشط شعري. كان قد صار في لون الذهب.

وخرجت من المكان، ونظرت إلى نفسي في المرآة.. كان يتألق تحت ضوء الشمس وحين وضعت يدي عليه لألمسه، وجدته ناعمًا كالحرير، لم أكن أصدق أن هذه المخلوقة هي أنا، وتملكني الانفعال، وأحسست بغصة في حلقي.

سرت بعد ذلك من حي برادو إلى المقهى، حيث كان هاري جالسًا في انتظاري، وكنت منفعلة جدًّا، وأشعر في أعماقي، بأن منظري قد صار مضحكًا.. وحين رآني قادمة نهض من كرسيه، ولم يستطع أن يرفع عينيه عني، وكان صوته أجش ومضحكًا، حين قال: يا إله السماء.. ماري لقد صرت جميلة.

وقلت له: هل أعجبك وأنا شقراء الشعر؟

وأجاب: لا تتكلمي.. هيا فلنذهب إلى الفندق فورًا.

وقلت له في ابتهاج: حسنًا إذن.. هيا بنا.

آه.. كنت حينئذ في السادسة والعشرين.

كان هذا حاله دائمًا معي، وكان هذا حالي دائمًا معه.. كان يقول إنه لم يمتلك طوال حياته قط شيئًا مثلي، وكنت أعلم أنني لم أحب

في حياتي شخصًا مثله.. والآن، ها هو ذا قد مات..الآن، يتحتم عليَّ أن أبدأ في القيام بأى عمل. أعرف أن ذلك يتحتم عليَّ. ولكن حين يكون للمرأة رجل كهذا، ثم يأتي أحد الأوغاد ويطلق عليه الرصاص بهذا الشكل، فإنه يستحيل عليها أن تبدأ العمل بعد وفاته مباشرة، لأنه بموته يموت كل شيء كان في قلبها، لا أدري الآن ماذا أفعل؟.. إن الحالة ليست مثلما كان يخرج في إحدى رحلاته، فآنذاك كان دائمًا ما يعود، أما الآن فعليَّ أن أسير بقية حياتي وحيدة، لا أنتظر له عودة، لقد أصبحت سمينة وقبيحة وعجوزًا، ولم يعد هو موجودًا إلى جواري ليقول لي إني لست كذلك.. يا لها من حالة مؤلمة.. يا لها من قسوة..

كان طيبًا جدًّا، وفي استطاعتي الاعتماد دائمًا عليه.. كان يوفر لنا النقود دائمًا، بطريقة أو بأخرى، ولم أكن لأهتم أنا بتدبير النقود، وإنما به فقط.. والآن ذهب هو، ولم تعد هناك نقود. إن صعوبة الأمر لا تكون بالنسبة لمن قُتل.. فلم أكن لأهتم، لو أنني أنا الذي قتلت بدلًا منه. أما بالنسبة لهاري وهو يتلقى نهايته هناك، فلا شك أنه كان قد وصل إلى قمة التعب. لقد قال الطبيب إنه لم يفق مطلقًا من إغماءته.. كنت سعيدة لأنه قضى في هدوء، لأنه بلا شك قد قاسى الأهوال على ظهر ذلك المركب. ترى هل فكر فيَّ وهو هناك؟ إني أعجب فيم كان يفكر؟ أعتقد أنه حين يكون المرء في مثل ذلك الموقف فإنه لا يفكر في أحد. أعتقد أنه تألم كثيرًا حين أصيب، ولكنه في النهاية كان متعبًا جدًّا. يا إلهي كم أتمنى لو كنت أنا الذي مت.. ولكن لا فائدة في التمني.

لم يكن في استطاعتي حضور الجنازة، ولكن الناس لم يفهموا ذلك.. لأنهم لا يفهمون مشاعر المرء وأحاسيسه، إن الرجال الطيبين نادرون، ولذا لا يستطيعون الوصول إليهم. ولا يستطيع أحد أن يفهم مشاعرك، لأنهم لا يعلمون لماذا تتصرف بهذا النحو أو ذاك. ولكني أنا أعلم، بل أعلم جيدًا.. ماذا أفعل أنا إذا عشت عشرين سنة أخرى؟ لا يستطيع أحد أن يقول لي، أو أن يجيب عن سؤالي.. والآن ليس أمامي من شيء سوى أن أبدأ العمل، وأن أتقبل كل يوم يمر بي مهما كان نوعه. هذا ما يتحتم عليَّ فعله.. ولكن يا إلهي، ماذا أستطيع أن أفعل في الليالى الطويلة المرعبة وحدي؟ كيف يمكنني أن أقضي الليالى مؤرقة لا يغمض لي جفن؟

وفى الخارج، أضاء الدنيا نهار جميل رطب، أشرقت شمس شتائه على تلك المنطقة الدافئة، وأخذت ريح الشمال الهادئة تحرك سعف النخيل فيتمايل هنا وهناك.. كان بعض الناس الذين أتوا إلى هذه البقعة لقضاء الشتاء يركبون دراجات يسيرون بها أمام منزل هاري مورجان وهم يضحكون. وفي المنزل المواجه، عبر الشارع، وقف طاووس يصيح في الفناء الواسع ومن خلال النافذة، كان المرء يستطيع أن يرى البحر يبدو جامدًا، وجديدًا وأزرق اللون، تحت شمس الشتاء.

وكان هناك يخت أبيض يدخل المرفأ.. وعلى مسافة سبعة أميال، كان في استطاعة المرء أن يرى ناقلة بترول هناك عند الأفق،

وهي تبدو صغيرة أنيقة، وقد انعكست صورتها الجانبية على سطح البحر الأزرق، وكأنها تحتضن الصخور وهي تشق طريقها متجهة إلى الغرب، حتى توفر بعض الوقود، بعدم سيرها ضد التيار.

تمت

* * *